

جين اير



الروايات المشهورة



جَينِ اِيَر





© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٨٧ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٦-٤٥-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

جَيْنَ إِيسَر



تأليف : شارلوت برونتي
إعداد : بهيَّة كرم
رُسُوم : جلال عمران

مَكْتَبَةُ لُبْنَان
بَیروت

الفصل الأول

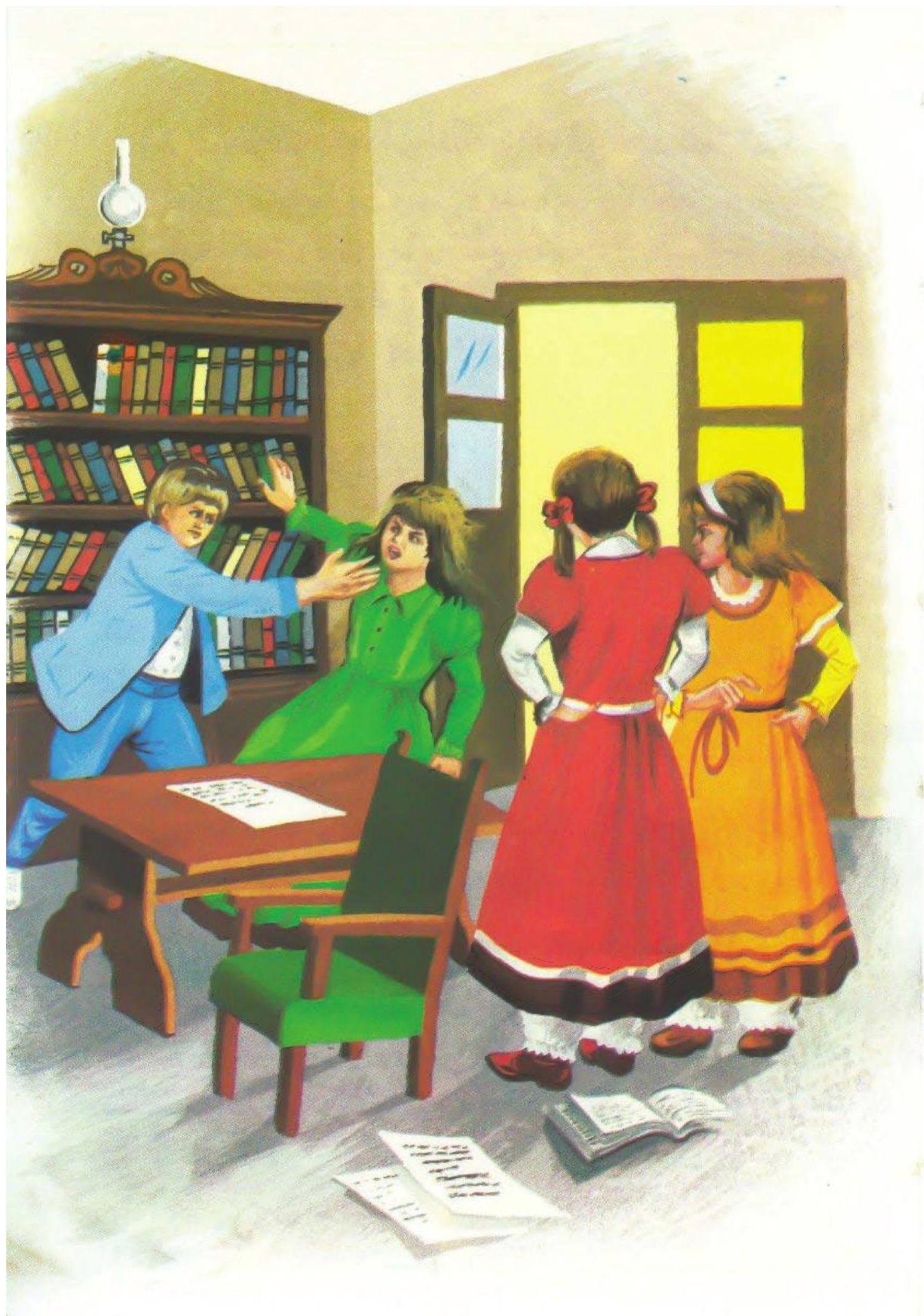
كَانَ يَوْمًا بَارِدًا مُمَطِّرًا مِنْ أَيَّامِ فَصْلِ الشِّتَاءِ، لِذَا لَمْ يُسَمَحْ لَنَا بِالْخُرُوجِ وَالتَّنَزُّهِ، فَسَعِدْتُ بِذَلِكَ، لِأَنِّي كُنْتُ أَكْرَهُ الْخُرُوجَ مَعَ أَوْلَادِ خَالَتِي: جُون، وَإِلِيزَا، وَجُورْجِيَانَا. كُنْتُ ضَعِيفَةً الْبَنِيَّةِ، يُصِيبُنِي التَّعَبُ قَبْلَ أَنْ يُصِيبَ سِوَايَ، وَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِسُخْرِيَّتِهِمْ مِنِّي.

لَمْ أَكُنْ أَحَبُّ خَالَتِي وَأَوْلَادَهَا، وَلَا هُمْ كَانُوا يُحِبُّونَنِي. لَمْ يَكُنِ الْأَوْلَادُ يَسْمَحُونَ لِي بِمُشَارَكَتِهِمْ لَعِبِهِمْ وَمَرَحِهِمْ، فَكُنْتُ أَحْسُ بِالتَّعَاسَةِ وَالْعُزْلَةِ بَيْنَهُمْ. عَلَى أَنَّهُ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَعِيشَ بَيْنَهُمْ فَقَدْ نَشَأْتُ يَتِيمَةً، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَقْرَبَاءَ سِوَاهُمْ أَعِيشَ فِي رِعَايَتِهِمْ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، كَانُوا يَجْلِسُونَ جَمِيعًا مَعَ أُمَّهِمْ فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، عَلَى حِينَ جَلَسْتُ وَحْدِي فِي الْمَكْتَبَةِ أَقْرَأُ كِتَابًا. كَانَتْ الْقِرَاءَةُ بِالنِّسْبَةِ لِي أَعْظَمَ مُتْعَةٍ. وَلَمْ يَكُنْ بِالْمَكْتَبَةِ كُتُبُ أَطْفَالٍ. وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحُلْ دُونَ مُتْعَتِي، فَجَلَسْتُ أَقْرَأُ كِتَابَ رِحَالٍ. وَذَهَبْتُ مَعَ الْكِتَابِ إِلَى أَقَاصِي الْبِلَادِ، مُسْتَعِينَةً بِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ صُورٍ مُلَوَّنةٍ جَمِيلَةٍ. إِلَّا أَنَّ مُتْعَتِي لَمْ تَدُمْ طَوِيلًا، فَقَدْ فُتِحَ الْبَابُ فَجَاءَ وَدَخَلَ جُون ابْنُ خَالَتِي، تَتْبَعُهُ إِلِيزَا وَجُورْجِيَانَا.

صَاحَ جُونُ: «مَاذَا تَفْعَلِينَ؟ تَعَالَي إِلَى هُنَا حَالًا!»

نَهَضْتُ وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ مُتَبَاطِئَةً. كُنْتُ أَخَافُهُ، فَقَدْ كَانَ فَتًى قَوِيًّا فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، عَلَى حِينَ كُنْتُ طِفْلَةً ضَعِيفَةً فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِي.



وَقَدْ نَشَأَ جُونُ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ مُدَلَّلًا مِنْ أُمِّهِ الَّتِي كَانَتْ تَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ
كُلِّ أَخْطَائِهِ، وَتَخُصُّهُ مِنْ حُبِّهَا بِنَصِيبٍ أَكْبَرَ مِمَّا تَخُصُّ بِهِ شَقِيقَتِيهِ. وَكَانَ
طَوِيلَ الْقَامَةِ، بَدِينًا، شَرِيرَ الطَّبْعِ، قَاسِيًا، لَا يُحِبُّ أَحَدًا. وَكَثِيرًا مَا كَانَ
يُضْرِبُنِي. وَقَدْ تَوَقَّعْتُ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ مِنْهُ يَوْمَهَا. وَكُنْتُ عَلَى حَقٍّ، فَقَدْ
ضَرَبَنِي ضَرْبَةً كَادَتْ تُوقِعُنِي عَلَى الْأَرْضِ، وَصَاحَ: مَاذَا كُنْتَ تَفْعَلِينَ؟
أَجَبْتُ: «كُنْتُ أَقْرَأُ.»

قَالَ: «مَنْ أُذِنَ لَكَ أَنْ تَقْرَأِي كُتُبَ أُمِّي؟ أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّكَ تَعِيشِينَ هُنَا
لِأَنَّكَ يَتِيمَةٌ؟! فَقَدْ مَاتَ أَبُوكَ، وَمَاتَتْ أُمُّكَ، وَتَرَكَكَ فَقِيرَةً مُعْدِمَةً. أَنْتِ لَا
تَتَمَيَّنِينَ إِلَى أَسْرَتِنَا، وَلَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَقْرَأِي كُتُبَنَا، وَنَحْنُ جَمِيعًا نَكْرَهُكَ.
أَتَسْمَعِينَ؟ نَكْرَهُكَ!» ثُمَّ تَنَاوَلَ الْكِتَابَ وَقَذَفَهُ نَاحِيَّتِي، فَأَصَابَ رَأْسِي.

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي أَظْهَرْتُ غَضَبِي، وَثَارَتْ ثَائِرَتِي لِمَا كُنْتُ أُعَانِيهِ مِنَ
الْأَلَمِ وَمَرَارَةِ الْوَحْدَةِ، فَصَرَخْتُ فِيهِ قَائِلَةً: «أَنْتَ وَلَدٌ شَرِيرٌ!»

بُهِتَ جُونُ وَقَالَ: «هَلْ سَمِعْتُمَا مَاذَا قَالَتْ؟ سَأَذْهَبُ فِي الْحَالِ إِلَى أُمِّي
لَأُخْبِرَهَا بِمَا حَدَثَ.» ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوِي يُرِيدُ ضَرْبِي، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ فِي هَذِهِ
الْمَرَّةِ مُسْتَعِدَّةً لِضَرْبَتِهِ، وَأَسْرَعَ مِنْهُ، فَتَفَادَيْتُهَا. وَنَشَبَ بَيْنَنَا عِرَاكٌ، فَجَذَبَتْهُ
مِنْ شَعْرِهِ وَأَنَا أَكْرَرُ قَوْلِي: «أَنْتَ شَرِيرٌ، شَرِيرٌ! وَأَنَا أَكْرَهُكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِي.»

حَضَرَتْ خَالَتِي وَخَادِمَتُهَا بَسِي فَوَرَ سَمَاعِهَا صَوْتَ عِرَاكِنَا، وَأَنْهَتِ
الْمُشَاجِرَةَ، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى بَسِي وَأَشَارَتْ إِلَيَّ قَائِلَةً: «خُذِيهَا وَاحْبِسِيهَا فِي
الْحُجْرَةِ الْحَمْرَاءِ.»

أَخَذَتْنِي بَسِي وَقَالَتْ لِي وَنَحْنُ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْحُجْرَةِ الْحَمْرَاءِ: «مَا
أَبْشَعَ مَا فَعَلْتَهُ بِجُونِ! هَلْ نَسِيتَ أَنَّ السَّيِّدَةَ رِيدَ هِيَ أُمُّهُ، وَهِيَ الَّتِي تَعْطِفُ
عَلَيْكَ وَتَرْعَاكِ فِي بَيْتِهَا؟ تَذَكَّرِي ذَلِكَ دَائِمًا يَا جِينِ! أَنَا لَا أَذْرِي مَاذَا
دَهَاكِ!»

الفصل الثاني

«خُذِيهَا إِلَى الْحُجْرَةِ الْحَمْرَاءِ.» شَعَرْتُ حِينَ سَمِعْتُ تِلْكَ الْعِبَارَةَ بِذُعْرٍ شَدِيدٍ. كَانَتْ الْحُجْرَةُ الْحَمْرَاءُ غُرْفَةً نَوْمِ عَمِّي الَّذِي تُوفِّي مُنْذُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ. وَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَعْمَلَةٍ، لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إِلَّا نَادِرًا. وَأَدْخَلْتَنِي فِيهَا بِسِي وَأَوْصَدَتِ الْبَابَ بِالْمِفْتَاحِ.

كُنْتُ أَرْتَعِدُ خَوْفًا وَغَضَبًا. وَتَطَلَّعْتُ حَوْلِي، فَرَأَيْتُ غُرْفَةً مُتَّسِعَةً بَارِدَةً، بَدَأَ لِي كُلُّ مَا فِيهَا كَبِيرًا وَمُخِيفًا. كَانَ السَّرِيرُ كَبِيرًا، وَكَذَلِكَ الْمَقَاعِدُ. وَجَلَسْتُ فِي وَسَطِهَا مُنْكَمِشَةً حَيْثُ تَرَكَتْنِي بِسِي، أَكَادُ أَمُوتُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ. وَتَذَكَّرْتُ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ بِسِي عَنِ الْأَشْبَاحِ، وَعَنْ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى الَّذِينَ يَعُودُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِيُزَوِّرُوا بُيُوتَهُمْ، خُصُوصًا إِذَا كَانُوا قَدْ أَمْضَوْا أَيَّامًا تَعِسَةً فِي حَيَاتِهِمْ. وَزَادَ خَوْفِي وَشُعُورِي بِالْوَحْدَةِ، فَبَدَأْتُ أَبْكِي وَأَنْدُبُ سُوءَ حَظِّي. كَانَ الْكُلُّ يَكْرَهُنِي بِالرَّغْمِ مِمَّا أَبْذَلُهُ مِنَ الْجَهْدِ لِإَرْضَائِهِمْ؛ وَكَانَ زَوْجُ خَالَتِي الْمُتَوَفَّى هُوَ الْوَحِيدَ الَّذِي عَطَفَ عَلَيَّ.

كَانَتْ مَخَاوِفِي تَزْدَادُ كُلَّمَا اشْتَدَّ ظِلَامُ الْحُجْرَةِ، وَبَقِيتُ فِي مَكَانِي، لَا أَجْرُؤُ عَلَى الْحَرَكَةِ. وَفَجْأَةً رَأَيْتُ نُورًا عَلَى الْجِدَارِ أَمَامِي، وَلَمْ يَكُنْ ضَوْءُ الْقَمَرِ، فَالْوَقْتُ كَانَ مُبَكَّرًا، إِذَا مِنْ أَيْنَ أَتَى الضَّوُّ؟! وَأَخَذَ قَلْبِي يَخْفُقُ اضْطِرَابًا، وَأَنْدَفَعْتُ نَاحِيَةَ الْبَابِ أَحَاوِلُ فَتَحَهُ، فَوَجَدْتُهُ مُوَصَّدًا، فَأَخَذْتُ أَصْرُخُ.



سَمِعْتَنِي بَسِي، فَسَأَلْتُ: «مَا الْخَبْرُ؟ هَلْ أَنْتِ مَرِيضَةٌ؟» وَفَتَحَتِ الْبَابَ قَلِيلًا، وَأَطَلَّتْ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: «أَرْجوكِ، أَرْجوكِ يَا بَسِي دَعِينِي أَخْرُجُ مِنْ هُنَا وَإِلَّا سَأَمُوتُ.»

سَأَلْتُ: «مَا بِكِ؟»

أَجَبْتُ: «رَأَيْتُ نُورًا عَلَى الْجِدَارِ وَرَأَيْتُ شَبَحًا. أَرْجوكِ يَا بَسِي أَرْجوكِ!»

سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدَةِ رِيدَ تَسْأَلُ عَنْ سَبَبِ الضَّجَّةِ فَأَجَابَتْهَا بَسِي قَائِلَةً: «سَمِعْتُهَا تَصْرُخُ يَا سَيِّدَتِي، فَظَنَنْتُهَا مَرِيضَةً.»

قَالَتِ السَّيِّدَةُ رِيدَ: «أُتْرِكِيهَا سَاعَةً أُخْرَى كَيْ تَرْتَدِّعَ عَنْ شَرِّهَا. لَمْ أَرِ فِي حَيَاتِي طِفْلاً شَرِّيرَةً صَعْبَةً الْمِرَاسِ كَهَذِهِ.»

قُلْتُ: «سَامِحِينِي يَا خَالَتِي. أَتَوَسَّلُ إِلَيْكِ! سَأَمُوتُ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ.» لَكِنَّهَا دَفَعَتْنِي عَنْهَا إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ، وَلَمْ أَعِ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا.

الفصل الثالث

أَفَقْتُ فَوَجَدْتُ نَفْسِي رَاقِدَةً فِي فِرَاشِي. وَشَعَرْتُ كَمَنْ يُفِيقُ مِنْ كَابُوسٍ رَهِيْبٍ، ثُمَّ سَمِعْتُ أَصْوَاتًا آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ.

وَرَأَيْتُ بَسِي فِي الْحُجْرَةِ وَمَعَهَا رَجُلٌ عَرَفْتُهُ، إِنَّهُ الدُّكْتُورُ لُوَيْدُ الَّذِي كَانَ يَرْعَى الْمَرَضَى مِنَ الْخَدَمِ.

كَانَ رَجُلًا عَطُوفًا، وَجَلَسَ بِجَانِبِ الْفِرَاشِ، وَأَخَذَ يُوجِّهُ إِلَيَّ أَسْئَلَةً، وَكُنْتُ أُجِيبُ عَنْهَا بِسُرٍ وَسُهولةٍ. وَأَخِيرًا نَهَضَ قَائِلًا: «يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ وَسَأَعُودُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. أَنْتِ بِخَيْرٍ يَا جِين، وَسَتَتَعَاْفِينَ سَرِيعًا.» ثُمَّ التَفَتَ إِلَى بَسِي قَائِلًا: «يَجِبُ أَنْ تَلْزَمَ هَذِهِ الطِّفْلَةَ الرَّاحَةَ التَّامَّةَ وَتَنَامَ الْآنَ، أَسْتَوْدِعُكُمَا اللَّهُ.»

شَعَرْتُ بِالْإِرْتِيَاحِ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَلَكِنْ سَرَعَانَ مَا عَاوَدَنِي الشُّعُورُ بِالْأَسَى وَالْمَرَارَةِ، وَسَأَلْتُ بَسِي عَنْ سَبَبِ مُلَاذِمَتِي الْفِرَاشِ فَأَجَابَتْ: «لَقَدْ مَرَضْتِ مِنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ وَالصِّيَاحِ أَثْنَاءَ وُجُودِكِ فِي الْغُرْفَةِ الْحَمْرَاءِ. وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ سَتَسْتَرْدِينَ صِحَّتَكَ قَرِيبًا، فَاخْلُدي إِلَى السُّكُونِ وَحَاوِلِي أَنْ تَنَامِي.»

نِمْتُ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا طَوَالَ اللَّيْلِ، وَكُنْتُ أَسْتَعْرِضُ فِي مُخَيَّلَتِي كُلَّ مَا حَدَثَ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ اللَّعِينَةِ: اقْتَرَبَ مِنِّي شَبَحٌ أَبْيَضٌ، ثُمَّ اخْتَفَى بِسُرْعَةٍ، وَجَاءَ خَلْفَهُ كَلْبٌ أَسْوَدٌ ضَخْمٌ. وَتَمَلَّكَنِي الرَّعْبُ وَالْخَوْفُ مِنْ

جَدِيدٍ، عِنْدَمَا تَذَكَّرْتُ هَذَا. قُلْتُ لِنَفْسِي: «لَنْ أَصْفَحَ أَبَدًا عَنْ خَالَتِي وَلَنْ أَنْسَى أَبَدًا سُوءَ مُعَامَلَتِهَا وَقَسَوَتِهَا، وَمَا زَرَعَتْهُ فِي نَفْسِي مِنْ خَوْفٍ وَمَرَارَةٍ.»

حَضَرَتْ بَسِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَسَاعَدَتْنِي عَلَى ارْتِدَاءِ مَلَابِسِي، وَكَانَتْ لَطِيفَةً جِدًّا فِي مُعَامَلَتِهَا، فَقَدْ أَحْضَرَتْ لِي كُتُبِي الْمُحِبَّةَ لَأَقْرَأَهَا، وَأَعَدَّتْ لِي أَشْهَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ لَمْ يَمَحُ مَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَلَمٍ وَحُزْنٍ فَبَكَيْتُ بِشِدَّةٍ. حَضَرَ الطَّبِيبُ كَمَا وَعَدَ، وَجَلَسَ يَتَحَدَّثُ مَعِي طَوِيلًا بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بَسِي بِالْإِنْصِرَافِ لِحَالِهَا. وَعِنْدَمَا أَخْبَرْتُهُ عَنِ الشَّبَحِ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الْغُرْفَةِ الْحُمْرَاءِ ضَحِكًا، فَأَكَّدْتُ لَهُ أَنَّهُ كَانَ شَبَحَ السَّيِّدِ رِيدِ الَّذِي مَاتَ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ، بِمَنْ فِيهِمُ السَّيِّدَةُ رِيدَ نَفْسُهَا، يَخَافُونَ دُخُولَ تِلْكَ الْغُرْفَةِ. وَأَخْبَرْتُهُ عَنْ عَزَلَتِي وَسَطِ أُسْرَةِ خَالَتِي فِي غَيْثِ سَهِيدٍ هُولَ، وَكَيْفَ أَنَّ الْجَمِيعَ يَكْرَهُونَنِي وَيَنْبِذُونَنِي لِأَنِّي يَتِيمَةٌ لَا أَمْلِكُ شَيْئًا.

سَأَلَنِي عَمَّا إِذَا كَانَ لِي أَقَارِبُ آخَرُونَ يُمَكِّنُ أَنْ أَلْجَأَ إِلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: «حَدَّثَنِي مَرَّةً السَّيِّدَةُ رِيدَ عَنْ عَائِلَةِ أَبِي، أُسْرَةِ إِيرَ. وَلَكِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهَا لَا تَعْلَمُ عَنْهُمْ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُمْ فُقَرَاءُ مَسَاكِينُ، لَا يُمَكِّنُهُمْ إِيوَاءُ طِفْلَةٍ يَتِيمَةٍ مِثْلِي وَرِعَايَتِهَا.»

سَأَلَنِي: «مَا رَأَيْتُكَ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ؟»
لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْمَدَارِسِ سِوَى أَنَّ جُونَ رِيدَ، وَهُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ يَذْهَبُ لِلْمَدْرَسَةِ، كَانَ يَكْرَهُ الْمَدْرَسَةَ وَيَكْرَهُ الذَّهَابَ إِلَيْهَا.



وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَهَابِي لِلْمَدْرَسَةِ يَعْنِي بُعْدِي عَنْ غَيْثِ سَهْدِ هَوْلٍ، فَذَلِكَ أَفْضَلُ لِي، وَأَنَا أُوَافِقُ عَلَيْهِ وَأَتَمَنَّاهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي.

قَالَ الدُّكْتُورُ لُوَيْدُ: «حَسَنًا سَأُكَلِّمُ خَالَتَكَ بِخُصُوصٍ هَذَا الْمَوْضُوعِ. وَالْآنَ أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ يَا جِين.» وَأَنْصَرَفَ.

عَلِمْتُ مِنْ بَسِي أَنَّ خَالَتِي وَافَقَتْ عَلَى فِكْرَةِ إِزْسَالِي لِلْمَدْرَسَةِ. ثُمَّ حَدَّثَنِي عَنْ أَبِي، وَقَالَتْ إِنَّهُ كَانَ قَسًّا فَقِيرًا فِي إِحْدَى الْكَنَائِسِ الصَّغِيرَةِ، عَلَى حِينِ كَانَتْ أُمِّي تَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ مِنَ الْعَائِلَاتِ ذَوَاتِ الشَّانِ. وَأَحَبَّ أَبِي أُمِّي وَأَحَبَّتُهُ، وَلَكِنَّ عَائِلَةَ أُمِّي اعْتَرَضَتْ عَلَى زَوَاجِهَا. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ تَزَوَّجَا مِمَّا أَثَارَ سُخْطَ عَائِلَتِهَا فَقَطَّعُوا كُلَّ صِلَتِهِمْ بِهَا. وَتُوُفِّيَ أَبِي بَعْدَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الزَّوْاجِ، وَلَحِقَتْ بِهِ أُمِّي بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ مِنْ وَلَادَتِي. وَقَالَتْ بَسِي تُنْهِئُ حَدِيثَهَا: «مُسْكِينَةٌ أَنْتِ يَا جِين! إِنَّهَا قِصَّةٌ مُحْزَنَةٌ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونِي فَتَاةً طَيِّبَةً شَاكِرَةً لِأُسْرَةٍ رِيدَ الَّتِي اخْتَضَعْتَكَ وَرَعَتَكَ.»

الفصل الرابع

مَضَتْ بِضَعَةُ أَشْهُرٍ دُونَ أَنْ يَرِدَ ذِكْرُ الْمَدْرَسَةِ عَلَى لِسَانٍ، وَظَنَنْتُ أَنَّ
الْمَوْضُوعَ قَدْ أَهْمَلَ. وَكَانَتْ خَالَتي طَوَالَ تِلْكَ الْمُدَّةِ لَا تُكَلِّمُنِي قَطُّ،
وَكَانَ أَوْلَادُهَا لَا يُشْرِكُونَنِي مَعَهُمْ فِي اللَّعِبِ وَالْمَرَحِ. وَصِرْتُ مُنْعَزِلَةً:
أَجْلِسُ وَخُدي، وَأَكُلُ وَخُدي، وَأَنَامُ وَخُدي. وَحَاوَلْتُ جَوْنَ مَرَّةٍ مُعَاكَسَتِي
فَأَنْفَجَرْتُ فِيهِ غَاظِبَةً، وَفَرَّ هَارِبًا.

دَخَلْتُ بَيْتَ حُجْرَتِي صَبَاحَ يَوْمٍ لِتُخْبِرَنِي بِأَنَّ السَّيِّدَةَ رِيدَ تَوَدُّ مُقَابَلَتِي
فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ. وَذَهَبْتُ وَأَنَا خَائِفَةٌ مِمَّا سَيَتَرَتَّبُ عَلَى تِلْكَ الْمُقَابَلَةِ.
وَعِنْدَمَا دَخَلْتُ الْحُجْرَةَ قَالَتْ لِرَجُلٍ كَانَ مَوْجُودًا مَعَهَا: «هَذِهِ هِيَ الطِّفْلَةُ
الَّتِي كَتَبْتُ لَكَ عَنْهَا.»

كَانَ الرَّجُلُ طَوِيلًا، عَرِيضَ الْكَتِفَيْنِ، يَرْتَدِي حُلَّةً سَوْدَاءَ، وَتَبْدُو عَلَى
وَجْهِهِ سِمَاتُ الْجِدِّ وَالصَّرَامَةِ. نَظَرَ إِلَيَّ بَرْهَةً ثُمَّ سَأَلَ خَالَتي: «كَمْ
عُمْرُهَا؟»

أَجَابَتْ: «إِنَّهَا فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهَا يَا سَيِّدُ بُرُو كِلْهَرُسْتُ.»
قَالَ مُتَعَجِّبًا: «إِنَّهَا تَبْدُو أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ.» ثُمَّ سَأَلَنِي: «مَا اسْمُكَ؟»
أَجَبْتُ: «جَيْنَ إِير، يَا سَيِّدِي.»
سَأَلَنِي: «هَلْ أَنْتِ فَتَاةٌ مُطِيعَةٌ طَيِّبَةٌ؟»



أَسْرَعَتِ السَّيِّدَةُ رِيدَ بِالْإِجَابَةِ قَائِلَةً: «لَقَدْ سَبَقَ وَكَتَبْتُ لَكَ عَنْ سُوءِ خُلُقِهَا يَا سَيِّدُ بَرُّو كُلِّهْرُسْت، وَلَا أَرَى دَاعِيًا لِأَنْ نُعِيدَ الْحَدِيثَ عَنْ ذَلِكَ.»
قَالَ: «تَعَالَيْ إِلَى هُنَا يَا جِين.»

وَقَفْتُ أَمَامَهُ مُدَّةَ عَشْرِ دَقَائِقَ أَلْقَى عَلَيَّ فِيهَا دَرْسًا عَنِ الْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ السُّلُوكِ، وَكَيْفَ أَنَّ الْأَطْفَالَ سَيِّئِي الْخُلُقِ سَيَذْهَبُونَ إِلَى جَهَنَّمَ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ. وَفِي نِهَایَةِ حَدِيثِهِ سَأَلَنِي: «هَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تَذْهَبِي إِلَى جَهَنَّمَ بَعْدَ وَفَاتِكَ؟»

اسْتَحْوَذَ عَلَيَّ الرُّعْبُ، وَعَاوَدْتَنِي مَخَاوِفُ الْحُجْرَةِ الْحُمْرَاءِ، فَعَجَزْتُ عَنِ الرَّدِّ. وَقَالَتْ خَالَتِي: «جِينِ إِيرِ طِفْلَةٌ مُزْعِجَةٌ، وَأَوَدُّ أَنْ أُرْسِلَهَا إِلَى



مَدْرَسَتِكَ فِي لُؤُودٍ حَتَّى تَتَهَدَّبَ، وَتُصْبِحَ ذَاتَ شَخْصِيَّةٍ أَفْضَلَ عِنْدَمَا تَكْبُرُ.»

شَعَرْتُ بِكُرْهِی لَهَا یَزْدَادُ عِنْدَ سَمَاعِی کَلِمَاتِهَا هَذِهِ. فَكَيْفَ تَتَحَدَّثُ عَنِّي بِهِذِهِ اللَّهْجَةِ الْبَغِيضَةِ أَمَامَ شَخْصٍ غَرِيبٍ؟ لَقَدْ انْطَبَعْتُ عَنِّي فِي رَأْسِ السَّيِّدِ بُرُو كُلِّهِرْشْتِ فِكْرَةً سَيِّئَةً لَنْ تَمْحُوهَا الْآيَامُ.

قَالَ السَّيِّدُ بُرُو كُلِّهِرْشْتِ: «اطْمَئِنِّي يَا سَيِّدَةُ رِيدِ، سَأُخْبِرُ الْآنِسَةَ تِمْبِلَ نَاضِرَةَ الْمَدْرَسَةِ بِمَا حَدَّثْتَنِي عَنْهُ.»

وَهَكَذَا سَبَقْتَنِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ انْطِبَاعَاتُ السَّيِّدَةِ رِيدِ عَنْ سُوءِ سُلُوكِي، فَقَرَّرْتُ آنَذَاكَ أَلَّا أَدْعُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِخَالَتِي، وَقَرَّرْتُ أَيْضًا أَلَّا آتِيَ أَبَدًا لَزِيَارَتِهَا.

وَبَعْدَ الْمُقَابَلَةِ خَرَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ وَمَكَثْتُ بِهَا وَخُذِي عِدَّةَ سَاعَاتٍ حَتَّى حَضَرْتُ بَسِي وَأَدْخَلْتَنِي خَوْفًا عَلَيَّ مِنَ الْبَرْدِ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي شَعَرْتُ بِالْمِيلِ نَحْوَهَا فَطَوَّقْتُهَا بِذِرَاعِي قَائِلَةً: «أَرْجوكِ يَا بَسِي لَا تَغْضَبِي مِنِّي.»

قَالَتْ بِسْرُورٍ: «حَقًّا أَنْتِ غَرِيبَةٌ الْأَطْوَارِ. لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ سَتَذْهَبِينَ قَرِيبًا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، فَهَلْ يُحْزِنُكَ أَنْ تَتْرَكِي بَسِي الْمُسْكِينَةَ وَرَاءَكَ.» قُلْتُ: «بَسِي لَا يَهْمُهَا مِنْ أَمْرِي شَيْءٌ، وَهِيَ دَائِمَةُ الْغَضَبِ مِنِّي.» فَقَالَتْ: «أَصْغِي لِي جَيِّدًا يَا جَيْن. عِنْدَمَا تَذْهَبِينَ لِلْمَدْرَسَةِ، كُونِي شُجَاعَةً، وَلَا تَنْطَوِي عَلَى نَفْسِكَ هَكَذَا. فَإِنَّ النَّاسَ يُقَدِّرُونَ الْمَرْءَ بِمَا يُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ قُوَّةِ شَخْصِيَّتِهِ وَشَجَاعَتِهِ، وَأَعِدْكِ بِأَنِّي مِنَ الْآنَ حَتَّى ذَهَابِكَ لِلْمَدْرَسَةِ لَنْ أَغْضَبَ مِنْكَ أَوْ أَغْضَبَكَ.»

قُلْتُ: «لَسْتُ أَخَافُكَ يَا بَسِي، وَلَكِنِّي أَرْتَعِدُ هَلَعًا كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي كُلِّ الْأَشْخَاصِ الْجُدِّ الَّذِينَ سَأَلْتَنِي بِهِمْ فِي مَدْرَسَةِ لُوُود.» قَالَتْ: «لَا تَخَافِي يَا جَيْن، لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ أَنَّ خَوْفَكَ مِنَ النَّاسِ يُبْعِدُكَ عَنْهُمْ، وَقَدْ يَدْفَعُهُمْ لِكُرْهِكَ. وَالْآنَ هَيَّا نَدْخُلْ. لَقَدْ صَنَعْتُ لَكَ فَطِيرَةً خَاصَّةً لِلشَّاي.»

اِخْتَضَعْتَنِي وَدَخَلْنَا مَعًا. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ شَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ فِي غَيْثِ سَهِيدِ هَوْلٍ وَأَنَا أَوْشِكُ أَنْ أَتْرَكَهَا لِلْأَبَدِ.

الفصل الخامس

تَرَكْتُ غَيْثَسَهِيدَ فِي سَاعَةِ مُبَكَّرَةٍ مِنْ صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُ بَسِي لِتَوْدِيْعِي. سَمِعْنَا صَوْتَ الْجِيَادِ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَنْ بُعْدٍ، وَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ السَّاعَةُ السَّادِسَةَ وَصَلَتِ الْمَرْكَبَةُ وَبَدَأَتْ رِحْلَتِي.

اسْتَعْرَقَتِ الرَّحْلَةُ الْيَوْمَ بِأَكْمَلِهِ، مِنْ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ حَتَّى سَاعَةِ مُتَأَخَّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ. كَانَ النُّعَاسُ قَدْ غَلَبَنِي فَنِمْتُ فِي الْمَرْكَبَةِ، وَاسْتَيْقَظْتُ عَلَى صَوْتِ امْرَأَةٍ تَسْأَلُ: «هَلْ مَعَكُمْ فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ تُدْعَى جِينِ إِير؟» نَهَضْتُ فِي الْحَالِ قَائِلَةً: «نَعَمْ، أَنَا.» فَأُنْزِلْتُ مِنَ الْمَرْكَبَةِ.

كَانَ الظَّلَامُ حَالِكًا، وَالْمَطَرُ يَتَسَاقَطُ، وَالرَّيَّاحُ تَهْبُ بِشِدَّةٍ. وَلاَحَ أَمَامِي مَبْنًى مُنْخَفِضٌ طَوِيلٌ. وَعِنْدَمَا طَرَقْنَا بَابَهُ فَتَحَتْهُ خَادِمَةٌ وَأَدْخَلَتْنَا حُجْرَةَ الْجُلُوسِ. وَكَانَتِ الْحُجْرَةُ دَافِئَةً وَمُرِيحَةً، رَغَمَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي عَظْمَةٍ وَأُبْهَةِ حُجْرَةِ الْجُلُوسِ فِي غَيْثَسَهِيدِ هُولٍ.

دَخَلْتُ عَلَيْنَا سَيِّدَةً طَوِيلَةً ذَاتُ شَعْرٍ أَسْوَدَ، وَوَجْهٍ حَنُونٍ، وَعِنْدَمَا رَأَتْنِي قَالَتْ: «أَهْلًا يَا جِينِ! إِنَّكَ صَغِيرَةٌ يَا فَتَاتِي عَلَى السَّفَرِ بِمُفْرَدِكَ، هَلْ أَنْتِ مُتْعَبَةٌ؟»

أَجَبْتُ: «قَلِيلًا يَا سَيِّدَتِي.»

قَالَتْ: «بِالتَّأَكِيدِ جَائِعَةٌ أَيْضًا. قَدِّمِي لَهَا بَعْضَ الطَّعَامِ يَا آنِسَةُ مِيلَرِ قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْفِرَاشِ.» وَسَأَلَتْنِي: «هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ تَتْرَكِينَ فِيهَا

وَالِدَيْكَ يَا بُنَيَّ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

أَخْبَرْتُهَا بِأَنِّي يَتِيمَةٌ الْأَبَوَيْنِ مُنْذُ طُفُولَتِي، وَلَا أَتَذَكَّرُ شَيْئًا عَنْهُمَا، فَسَأَلَتْنِي
عَنْ عُمْرِي، وَأَخْبَرْتُهَا فَقَالَتْ: «أَرْجُو أَنْ تَنْعَمِي بِوُجُودِكَ وَسَطْنَا يَا جِين،
وَأَنْ تَكُونِي فَتَاةً طَيِّبَةً مُطِيعَةً.»

أَخَذَتْنِي الْآنِسَةُ مِيلَرَ إِلَى حُجْرَةٍ فَسِيحَةٍ مُزْدَحِمَةٍ بِفَتَيَاتٍ مِنْ مُخْتَلَفِ
الْأَعْمَارِ. وَكُنَّ نَحْوَ ثَمَانِينَ فَتَاةً يَرْتَدِينَ كُلُّهُنَّ زِيًّا وَاحِدًا مُكَوَّنًا مِنْ جِلْبَابٍ
بُنِيَ اللَّوْنُ قَبِيحِ الشَّكْلِ، وَأَخْذِيَّةٍ ضَخْمَةٍ ثَقِيلَةٍ. وَكُنَّ عَلَى مَا بَدَأَ يَسْتَذَكِّرْنَ
دُرُوسَهُنَّ لِلْيَوْمِ التَّالِي.

فَجَاءَ عَلَا صَوْتُ يَطْلُبُ طَعَامَ الْعِشَاءِ، وَلَمَّا أَحْضَرَ الْعِشَاءُ وَجَدْتُهُ
مُكَوَّنًا مِنْ خُبْزٍ وَمَاءٍ لَا غَيْرَ، وَحَتَّى ذَلِكَ كَانَ قَلِيلًا. وَسَرَّعَانَ مَا انْتَهَتْ



الْوَجْبَةُ وَذَهَبْنَا لِلْفِرَاشِ.

فِي الصَّبَاحِ، أَيْقَظَنِي رَنِينُ الْجَرَسِ. وَبَدَأْتُ حَيَاتِي فِي مَدْرَسَةِ لُؤُودَ.
لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ بَعْدُ حِينَ دَخَلْنَا حُجْرَةَ الدِّرَاسَةِ، ثُمَّ حَضَرْتُ
ثَلَاثَ مَدْرَسَاتٍ أُخْرَيَاتٍ، وَكَانَتْ هُنَاكَ مَدْرَسَةٌ لِكُلِّ فَصْلٍ، وَقَدْ أُلْحِقْتُ
بِأَصْغَرِ الْفُصُولِ. وَأَمْضَيْنَا سَاعَةً نَحْفَظُ صَلَوَاتِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَكِدْتُ
أَمُوتُ جُوعًا إِذْ لَمْ أَكُنْ قَدْ تَنَاوَلْتُ غَيْرَ الْقَلِيلِ مِنَ الطَّعَامِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ.
أَخِيرًا حَانَ وَقْتُ الْإِفْطَارِ، وَلَكِنَّ رَائِحَةَ الطَّعَامِ الْمُقَدَّمِ لَنَا كَانَتْ كَرِيهَةً
فَعَافَهُ الْجَمِيعُ حَتَّى أَنَا مَعَ شِدَّةِ جُوعِي، وَلَمْ نَتَنَاوَلْ إِلَّا الْقَلِيلَ.

بَعْدَ الْإِفْطَارِ، كَانَتْ لَدَيْنَا فِتْرَةٌ رَاحَةٍ مُدَّتْهَا خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً
أَمْضَيْنَاهَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَدَاءَةِ الطَّعَامِ. وَفِي السَّاعَةِ الثَّاسِعَةِ دَقَّ جَرَسُ



آخِرُ، فَعُدْنَا إِلَى فُصُولِنَا وَدُرُوسِنَا حَيْثُ بَقِينَا حَتَّى الظَّهيرةِ. وَخَرَجْنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَدِيقَةِ لِمُدَّةِ نِصْفِ سَاعَةٍ، وَكَانَ الْبَرْدُ شَدِيدًا، وَلَمْ نَكُنْ نَرْتَدِي سِوَى ثِيَابٍ خَفِيفَةٍ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، بَدَتِ الْحَدِيقَةُ جَرْدَاءَ بَارِدَةٍ، فَقَدْ كُنَّا فِي مُتَشَصِفِ فَصْلِ الشِّتَاءِ. وَكَانَ الْمَطَرُ يَتَساقَطُ رَذَاذًا، فَتَجَمَّعَتْ بَعْضُ الْفَتَيَاتِ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْحَدِيقَةِ يُحَاوِلْنَ تَدْفِئَةَ أَنْفُسِهِنَّ. وَكَانَتِ الْكَثِيرَاتُ مِنْهُنَّ يَسْعُلْنَ، وَسَرَّعَانَ مَا تَعَوَّذَتْ صَوْتَ السُّعَالِ فِي مَدْرَسَةِ لُوودَ، فَأَكْثَرَ الْفَتَيَاتِ كُنَّ مَرِيضَاتٍ يُعَانِينَ مِنْ ضَعْفِ صُدُورِهِنَّ.

لَمَحْتُ فِي الْحَدِيقَةِ فَتَاةً تَجْلِسُ بِمُفْرَدِهَا تُطَالِعُ كِتَابًا، شَعَرْتُ بِشَيْءٍ يَجْذِبُنِي نَحْوَهَا، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالْخَوْفِ مِنْهَا كَعَادَتِي، بَلْ جَرُوتُ عَلَى أَنْ أُوجِّهَ إِلَيْهَا بَعْضَ الاسْتِفسَارَاتِ عَنِ الْمَدْرَسَةِ وَنُظُمِهَا. كَانَ حَدِيثُهَا لَطِيفًا، وَعَلِمْتُ مِنْهَا أَنَّ مَدْرَسَةَ لُوودَ مَدْرَسَةُ أَيْتَامِ الْأُسْرِ الْفَقِيرَةِ، وَأَنَّ الْآنِسَةَ تَمْبِلُ هِيَ نَاظِرَةُ الْمَدْرَسَةِ وَلَيْسَتْ صَاحِبَتِهَا، وَأَنَّ صَاحِبَ الْمَدْرَسَةِ هُوَ السَّيِّدُ بَرُو كُلْهَرَسْت.

قُلْتُ لَهَا: «الْآنِسَةُ تَمْبِلُ شَخْصِيَّةً لَطِيفَةً طَيِّبَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»
أَجَابَتْ: «نَعَمْ، هِيَ طَيِّبَةٌ وَكَذَلِكَ بَاقِي الْمُدْرَسَاتِ، وَلَكِنَّهَا تَفُوقُ الْجَمِيعَ طَيِّبَةً وَذَكَاءً؛ وَكَمْ تَمَنِّيْتُ لَوْ كَانَتْ هِيَ صَاحِبَةَ الْمَدْرَسَةِ بَدَلًا مِنْ السَّيِّدِ بَرُو كُلْهَرَسْت.»

كَانَتِ الْفَتَاةُ تُدْعَى هِيلِينِ بِيرْنَزْ، وَهِيَ يَتِيمَةٌ، وَأَمْضَتْ سَتَيْنِ فِي

المدرسة. وسألتهما عما إذا كانت سعيدة في حياتها هنا فقالت: «كفى
أسئلة الآن، أزوجك أن تتركيني لأنني أود أن أقرأ.»
تركتها، وكنت سعيدة لرفقتها في الحديث معي، ولكنني كنت قلقة
عليها، فقد سمعتها تسعل كثيراً أثناء حديثنا وكانت ضعيفة البنية.
دق الجرس معلناً عن وقت الغداء، ولم تكن هذه الوجبة أفضل من
الوجبة السابقة، فتناولنا منها القليل ثم عاودنا الدراسة حتى صارت
الساعة الخامسة. وتناولنا وجبة أخرى صغيرة مكونة من القهوة والخبز
الأسمر، ثم لعبنا لمدة نصف ساعة عدنا بعدها للدراسة حتى حان وقت
العشاء. واختتمنا اليوم بتناول قطعة خبز يابس وكوب من الماء، ثم آوينا
إلى الفراش بعد أن صلينا.

الفصل السادس

تَعاقَبَتِ الأَيَّامُ عَلَى نَفْسِ الوَتِيرَةِ وَالنِّظَامِ فِي لُؤُودٍ. وَانْقَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ بِبُطْءٍ مُمِلٍّ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ تَعِيسَةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الحَيَاةَ فِي المَدْرَسَةِ كَانَتْ أَقْسَى مِنَ الحَيَاةِ فِي غَيْثِ سَهِيدِ هُولٍ. وَكُنْتُ أَفْضَلُ هَذِهِ الحَيَاةِ بِرَغْمِ مَا لاقَيْتُهُ مِنْ صُعُوبَاتٍ فِي بَدْءِ دِرَاسَتِي حَيْثُ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ جَدِيدًا عَلَيَّ. وَوَجَدْتُ مُتَعَةً فِي تَحْصِيلِ المَعْرِفَةِ وَمُتَابَعَةِ الدُّرُوسِ، وَكَانَتْ مُشْكِلَتِي - بَلْ مُشْكِلَةُ الجَمِيعِ - هِيَ الشُّعُورَ الدَّائِمَ بِالْجُوعِ.

قَوِيْتُ أَوَاصِرُ الصَّدَاقَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ هِيلِينِ بِيرْنزَ، وَكَانَتْ تُشَجِّعُنِي دَائِمًا وَتَحُثُّنِي عَلَى مُوَاجَهَةِ الصُّعَابِ؛ وَلَكِنْ لِلْأَسَفِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهَا وَطْأَةُ المَرَضِ، وَسَاءَتْ صِحَّتُهَا، وَكَادَ سُعَالُهَا أَنْ يَكُونَ مُتَوَاصِلًا. وَلَكِنَّهَا بَقِيَتْ صَبُورَةً بِشَوْشَةٍ حَنُونَةٍ.

كَانَ قَدْ مَضَى عَلَى وُجُودِي فِي المَدْرَسَةِ نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ، وَوَقَعَتْ حَادِثَةٌ أَظْهَرَتْ رِقَّةَ قَلْبِ هِيلِينِ. فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا فِي الفَصْلِ السَّيِّدُ بُرُو كُلْهَرِشْت بِصُحْبَةِ الْآنِسَةِ تِمْبِلِ. كُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أُثْبِتُ وُجُودِي فِي لُؤُودٍ، وَأَحَوزُ عَطْفَ الجَمِيعِ وَرِضَاهُمْ عَنِّي، إِلَى أَنْ حَضَرَ السَّيِّدُ بُرُو كُلْهَرِشْت. خِفْتُ أَنْ يُذِيعَ عَنِّي مَا قَالَتْهُ السَّيِّدَةُ رِيدُ، فَجَلَسْتُ سَاكِئَةً لَا أَتَحَرَّكُ حَتَّى لَا أَلْفِتَ نَظْرَهُ إِلَيَّ. وَاسْتَمَرَّ فِي حَدِيثِهِ مَعَ الْآنِسَةِ تِمْبِلِ، وَكَانَ يُخَالِفُ رَأْيَهَا فِي إِدْخَالِ بَعْضِ التَّحْسِينَاتِ عَلَى مَلْبَسِنَا وَمَأْكَلِنَا وَمَشْرَبِنَا،

كَمَا انْتَقَدَ عِدَّةُ أَشْيَاءٍ أُخْرَى مِنْهَا بَعْضُ تَسْرِيحاتِ الشَّعْرِ. وَلَمْ تُدَافِعِ
الْآنِسَةُ تَمْبِلَ عَنْ رَأْيِهَا، بَلْ تَقَبَّلَتْ مَا أَبْدَى مِنْ رَأْيٍ وَانْتِقَادٍ صَامِتَةً صَاغِرَةً.
وَكُنْتُ أَتَمَيَّزُ غَيْظًا، وَكَانَتْ يَدَايَ تَرْتَجِفَانِ رُغْبًا، فَسَقَطَ كِتَابِي عَلَى الْأَرْضِ
وَأَحَدَتْ صَوْتًا، وَحَدَّثَ مَا كُنْتُ أَخْشَاهُ.

صَوَّبَ إِلَيَّ السَّيِّدُ بُرُو كُلْهِرْسْتُ نَظْرَةً ثاقِبَةً قَاسِيَةً وَقَالَ: «تَبًّا لَكَ! أَنْتِ
الْفَتَاةُ الْجَدِيدَةُ جِينِ إِير. تَعَالِي إِلَى هُنَا. لَدَيَّ مَا أَوْدُّ أَنْ أَقُولَهُ عَنْكَ.»
تَمَلَّكَنِي الرُّغْبُ، وَشُلَّتْ حَرَكَتِي، فَدَفَعْتَنِي الْفَتَاتَانِ اللَّتَانِ كَانَتَا جَالِسَتَيْنِ
عَلَى جَانِبَيَّ، وَوَقَفْتُ أَمَامَ السَّيِّدِ بُرُو كُلْهِرْسْتُ، وَسَمِعْتُ صَوْتَ الْآنِسَةِ
تَمْبِلَ تَقُولُ بِرَزَانَةِ وَهْدُو: «لَا تَخَافِي يَا جِين؛ أَنَا وَاثِقَةٌ مِنْ أَنْ سُقُوطَ
الْكِتَابِ لَمْ يَكُنْ مُتَعَمِّدًا.» مَا كَانَ أَلْطَفَهَا!

أَشَارَ السَّيِّدُ بُرُو كُلْهِرْسْتُ إِلَى مَقْعَدٍ عَالٍ وَقَالَ: «اجْلِسِي هُنَاكَ.» ثُمَّ
أَمْضَى عَشْرَ دَقَائِقَ يُحَدِّثُ الْجَمِيعَ عَمَّا عَرَفَهُ عَنِّي مِنْ حَدِيثِ السَّيِّدَةِ رِيدَ،
وَقَالَ إِنِّي فَتَاةٌ شَرِّيرَةٌ كَاذِبَةٌ يَجِبُ أَنْ يَتَجَنَّبَنِي الْجَمِيعُ. وَقَبْلَ أَنْ يَتْرُكَنَا قَالَ
لِي: «إِبْقِي حَيْثُ أَنْتِ لِمُدَّةِ نِصْفِ سَاعَةٍ عِقَابًا لَكَ، وَلَا يَتَحَدَّثُ مَعَكَ أَحَدٌ
حَتَّى صَبَاحِ الْغَدِ.»

كَدْتُ أَمُوتُ خَجَلًا وَأَسَى وَحَسْرَةً. الْآنَ سَيَكْرَهُنِي الْجَمِيعُ، وَسَأَعُودُ
إِلَى عَزْلَتِي وَتَعَاسَتِي. وَوَسَطَ مَخَاوِفِي، أَقْبَلْتُ هِيلِينَ بِيرْنَزَ مُبْتَسِمَةً
لِتُشَجِّعَنِي، وَلَمْ أَتْرُكْ مَقْعَدِي حَتَّى ذَهَبَ الْجَمِيعُ لِتَنَاوُلِ الشَّايِ،

وَجَلَسْتُ فِي أَحَدِ أَرْكَانِ الْحُجْرَةِ أَبْكِي حَظِّي الْعَائِثِرَ. وَسَرَعَانَ مَا عَادَتْ هِيلِينُ إِلَى الْحُجْرَةِ وَقَالَتْ لِي: «هَيَّا يَا جِينِ جَفِّفِي دَمْعَكَ وَتَعَالِي لِتَأْكُلِي بَعْضَ الطَّعَامِ. كُلُّنَا نُخَالِفُ رَأْيَ السَّيِّدِ بُرُو كُلِّهِرْسْت عَنْكَ، وَنَشْعُرُ بِالْعَطْفِ نَحْوَكَ.»

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَمْ أَعُدْ أَخْشَى السَّيِّدَ بُرُو كُلِّهِرْسْت وَلَمْ أَعُدْ أَحْتَرِمُهُ أَوْ أَهَابُهُ.

قَالَتْ هِيلِينُ: «مَاذَا يَعْْنِيكَ فِي رَأْيِ السَّيِّدِ بُرُو كُلِّهِرْسْت عَنْكَ؟ أَنْتِ تَعْلَمِينَ أَنَّكَ لَسْتَ كَاذِبَةً وَلَا شَرِيرَةً، فَلَا تَهْتَمِّي هَكَذَا بِمَا يَقُولُهُ النَّاسُ عَنْكَ مَا دُمْتَ تَعْلَمِينَ فِي سَرِيرَةِ نَفْسِكَ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ.» وَبَدَأَتْ أَتْمَالُكَ نَفْسِي.

حِينَئِذٍ دَخَلَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلُ الْحُجْرَةَ وَقَالَتْ: «تَعَالِي إِلَى غُرْفَتِي يَا جِينِ، أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ شَيْءٍ؛ وَأَنْتِ أَيْضًا يَا هِيلِينِ، إِذَا أَرَدْتِ.» جَلَسْنَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْمِدْفَأَةِ نَتَحَدَّثُ، وَكَانَتِ الْغُرْفَةُ مُرِيحَةً، وَسَأَلْتَنِي الْآنِسَةُ تَمْبِلُ: «هَلْ أَشْبَعَتْ رَغْبَتُكَ فِي الْبُكَاءِ يَا جِينِ؟ هَلْ تَشْعُرِينَ الْآنَ بِالرَّاحَةِ؟»

أَجَبْتُ: «لَا يَا آنِسَةُ تَمْبِلُ.»

سَأَلْتَنِي: «لِمَاذَا؟»

أَجَبْتُ: «لِأَنَّ السَّيِّدَ بُرُو كُلِّهِرْسْت لَمْ يَكُنْ مُحِقًّا فِيمَا قَالَهُ عَنِّي،

وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثُهُ قَدْ تَرَكَ أَثْرًا سَيِّئًا فَتَكْرَهُونَنِي.»
 قَالَتْ: «أَرْجوكِ يَا جِينُ أَنْ تُحَدِّثِينَا عَنْ حَيَاتِكَ فِي مَنْزِلِ خَالَتِكَ، وَدَعِينَا
 نَحْنُ نُقَرِّرُ مَا إِذَا كَانَ السَّيِّدُ بُرُو كُلْهَرَسْتِ مُحِقًّا أَمْ لَا.»
 تَوَخَّيْتُ الصَّدْقَ فِي كُلِّ مَا أَقُولُ وَأَنَا أَرْوِي قِصَّتِي لِلْآنِسَةِ تَمْبِلَ، حَتَّى،
 أَتَيْتُ إِلَى الْجُزْءِ الَّذِي لِعَبِّهِ الدُّكْتُورُ لُوَيْدُ فِي حَيَاتِي، فَقَالَتْ:
 «نَعَمْ لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ هَذَا الطَّبِيبِ، إِنَّهُ رَجُلٌ فَاضِلٌ أَمِينٌ، وَسَأَكْتُبُ لَهُ
 وَأَسْتَفْسِرُ عَنْكَ، فَإِذَا مَا طَابَقَتْ رِوَايَتُهُ رِوَايَتِكَ، أَعِدُّكَ بِأَنْ أُعْلِنَ لِلْجَمِيعِ
 طِبِّيتَكَ وَحُسْنَ خُلُقِكَ. وَالْآنَ هَيَّا، أَنْتُمَا ضَيْفَتَايَ اللَّيْلَةَ، وَلْتَتَنَاوَلَ الشَّايَ
 مَعًا.»

أَثْنَاءَ تَنَاوُلِ الشَّايِ، كَانَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلُ وَهَيْلِينَ تَتَحَدَّثَانِ عَنْ كُتُبٍ وَعَنْ
 بِلَادٍ نَائِيَةٍ لَمْ أَسْمَعْ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ. وَشَعَرْتُ بِجَهْلِي، وَأَصْغَيْتُ لَهُمَا بِكُلِّ
 اهْتِمَامٍ، وَمَا أَسْرَعَ مَا مَضَى الْوَقْتُ وَحَانَ مَوْعِدُ النَّوْمِ.
 قَبْلَتُنَا الْآنِسَةُ تَمْبِلُ قَبْلَ أَنْ نَنْصَرِفَ، وَنَعِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِنَوْمٍ هَادِيٍّ.
 وَصَلَ رَدُّ الدُّكْتُورِ لُوَيْدِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ مُؤَيَّدًا أَقْوَالِي، وَوَفَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلَ
 بِوَعْدِهَا، وَأَعْلَنْتِ لِلْجَمِيعِ أَنَّ مَا قَالَهُ عَنِّي السَّيِّدُ بُرُو كُلْهَرَسْتِ لَمْ يَكُنْ
 صَحِيحًا. وَبَدَأَتْ مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنْعَمُ بِالْحَيَاةِ دَاخِلَ لُوُودِ.

الفصل السابع

مَضَى الشَّتَاءُ وَحَلَّ الرَّبِيعُ وَحَلَّتْ مَعَهُ الْمَتَاعِبُ. كَانَتِ الْفَتَيَاتُ ضَعِيفَاتِ
الْبَنِيَّةِ، بِسَبَبِ مَا عَانَيْنَ مِنْ بَرْدٍ وَسُوءِ تَغْذِيَةٍ أَثْنَاءَ الشَّتَاءِ، وَأَصْبَحْنَ قَلِيلَاتِ
الْمُقَاوِمَةِ وَفَرِيسَةً سَهْلَةً لِلْمَرَضِ. وَانْتَشَرَ وَبَاءُ حُمَى التَّيْفُوسِ، وَأَصَابَ
خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ فَتَاةً مِنَ الثَّمَانِينَ. وَمَاتَتِ الْكَثِيرَاتُ مِنْهُنَّ، وَتَوَقَّفَتِ
الدِّرَاسَةُ، وَانْشَغَلَتِ الْمُدَرِّسَاتُ بِالتَّمْرِیضِ، عَلَى حِينِ أَصْبَحَتْ وَالْفَتَيَاتُ
الَّلَاتِي لَمْ يُصَبْنَ بِالْمَرَضِ أَحْرَارًا نَتَصَرَّفُ فِي وَقْتِنَا كَيْفَمَا نَشَاءُ. وَقَضَيْنَا
مُعْظَمَ وَقْتِنَا نَتَنَزَّهُ فِي الْخَلَاءِ، دُونَ أَنْ نَخَافَ سُلْطَةَ السَّيِّدِ بَرُو كُلْهَرَسْتُ
لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنْ أَبْوَابِنَا طَوَالَ مُدَّةِ انْتِشَارِ الْوَبَاءِ.

لَمْ تَكُنْ هِيلِينَ ضَمْنَ مَنْ أَصَابَتْهُنَّ حُمَى التَّيْفُوسِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تُعَانِي
مِنْ مَرَضٍ عُضَالٍ اشْتَدَّتْ عَلَيْهَا وَطَأَّتُهُ وَلَا زَمَتِ الْفِرَاشَ. وَذَاتَ مَسَاءٍ
فِي أَوَائِلِ شَهْرِ يُونِيهِ، رَأَيْتُ مَرْكَبَةَ الطَّبِيبِ تَقِفُ بِبَابِنَا، وَفَكَّرْتُ: «لَا بُدَّ
أَنْ إِحْدَى الْفَتَيَاتِ مَرِيضَةٌ جِدًّا وَإِلَّا لَمَا حَضَرَ الطَّبِيبُ مُتَأَخِّرًا هَكَذَا.»
وَتَذَكَّرْتُ هِيلِينَ فَجَاءَةً، فَأَسْرَعْتُ إِلَى إِحْدَى الْمُدَرِّسَاتِ أَسْتَفْسِرُ عَنْهَا،
فَقَالَتْ: «إِنَّ حَالَةَ هِيلِينَ سَيِّئَةٌ جِدًّا، وَلَا يَتَوَقَّعُ الطَّبِيبُ أَنْ تَعِيشَ طَوِيلًا،
وَحَالَتُهَا لَا تَسْمَحُ بِزِيَارَتِهَا.»

مَضَيْتُ إِلَى حُجْرَتِي لِلنَّوْمِ، وَأَمْضَيْتُ سَاعَتَيْنِ فِي الْفِرَاشِ أَتَخَيَّلُ أَنِّي
أَسْمَعُ صَوْتَ هِيلِينَ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهَا، وَذَهَبْتُ إِلَى غُرْفَتِهَا وَنَادَيْتُ
بِهْدوءٍ: «هِيلِينَ! أَمْسْتِيقِظَةُ أَنْتِ؟»

قَالَتْ: «مَنْ؟ جِين؟ مَا أَحْلَى أَنْ أَسْمَعَ صَوْتِكَ.» فَقَبَّلَتْهَا وَشَعَرَتْ
بِبُرودةِ جِسْمِهَا، كَمَا لَاحَظَتْ أَنَّهَا أَزْدَادَتْ نَحَافَةً وَضَعْفًا، لَكِنَّ ابْتِسَامَتَهَا
الْحُلُوَّةَ بَقِيَتْ وَلَمْ تُفَارِقْهَا.



قُلْتُ: «كَانَ لَا بُدَّ لِي أَنْ أُرَاكَ بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ بِمَرَضِكَ.»
قَالَتْ: «لَقَدْ أَحْسَنْتِ تَوْقِيتَ زِيَارَتِكَ يَا جِين - فَهَذِهِ زِيَارَةُ الْوَدَاعِ.»
قُلْتُ: «لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ تَنْوِينِ السَّفَرَ. إِلَى أَيْنَ سَتَذْهَبِينَ يَا هِيلِين؟»
إِنْتَابَتْهَا نَوْبَةٌ سُعَالٍ شَدِيدَةٌ وَطَوِيلَةٌ مَنَعَتْهَا مِنَ الْإِجَابَةِ، وَقَالَتْ بَعْدَهَا:
«لَا تَحْزَنِي يَا جِين، سَأَرْحَلُ إِلَى جِوَارِ رَبِّي، وَأَنَا سَعِيدَةٌ بِهَذَا الرَّحِيلِ.»
لَمْ أَجِدْ رَدًّا أَقُولُهُ، بَلْ طَوَّقْتُهَا بِذِرَاعِي وَلَبِثْتُ مَعَهَا حَتَّى رَاحَتْ فِي
النَّوْمِ، وَحَضَرَتْ الْآنِسَةُ تَمْبِلَ وَأَعَادَتْنِي إِلَى غُرْفَتِي لِأَنَامَ.
فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ بَلَغَنِي خَبَرُ وَفَاةِ هِيلِين؛ فَقَدْ تُوفِّيَتْ فِي اللَّيْلِ أَثْنَاءَ نَوْمِهَا.

الفصل الثامن

أُظُنِّي قُلْتُ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ عَنْ أَيَّامِ طُفُولَتِي، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْقَلِيلِ أَسْرُدُهُ عَنْ حَيَاتِي فِي لُؤُود.

طَرَأَتْ عِدَّةُ تَغْيِيرَاتٍ عَلَى الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ زَوَالِ وَبَاءِ التَّيْفُوسِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي أَنْ يَسْمَعَ الْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ عَنَّا وَيَعْلَمَ بِمَآسِينَا، وَانْتَقَلَتِ الْمَدْرَسَةُ إِلَى مَكَانٍ أَفْضَلَ وَأَدْفَأَ. كَمَا طَرَأَ تَعْدِيلٌ فِي كَمِّيَّةِ الطَّعَامِ وَنَوْعِهِ، وَكَذَلِكَ تَحَسَّنَ الْمَلْبَسُ، وَأَصْبَحَتِ الْحَيَاةُ أَقْلَ مُعَانَاةً وَأَفْضَلَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

بَقِيتُ فِي لُؤُودِ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ، قَضَيْتُ مِنْهَا سِتًّا فِي الدِّرَاسَةِ، وَسَتَيْنِ فِي التَّدْرِيسِ حَيْثُ صِرْتُ مُدْرَسَةً بَعْدَ انْتِهَاءِ دِرَاسَتِي، وَأَصْبَحَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلَ صَدِيقَتِي.

فِي نِهَايَةِ هَذِهِ الْمُدَّةِ تَزَوَّجَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلَ، وَرَحَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا بَعِيدًا عَنَّا. وَبَعْدَ رَحِيلِهَا شَعَرْتُ بِرَغْبَتِي فِي الرَّحِيلِ، فَلَمْ أَعُدْ أَعْتَبِرْ لُؤُودَ بَيْتِي. وَوَدَدْتُ أَنْ أَرَى الْحَيَاةَ وَأُمَارِسَهَا خَارِجَ جُذْرَانِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِي أَصْدِقَاءُ أَلْجَأُ إِلَيْهِمْ. وَبَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ، اهْتَدَيْتُ إِلَى حَلٍّ لِمُشْكِلَتِي. نَعَمْ، لِمَاذَا لَا أَنْشُرُ فِي الصُّحُفِ إِعْلَانًا أَطْلُبُ عَمَلًا؟! وَهَذَا مَا حَدَثَ بِالْفِعْلِ؛ فَقَدْ نَشَرْتُ الْإِعْلَانَ الْآتِي:

«شَابَةٌ تُرِيدُ عَمَلًا كَمَرْبِيَّةٍ لِلْأَوْلَادِ دُونَ سِنِّ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ. يُمَكِّنُهَا تَعْلِيمُ اللُّغَتَيْنِ: الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، كَذَلِكَ الرَّسْمِ وَالْمُوسِيقَى. الْعُنْوَانُ مَكْتَبُ بَرِيدِ لُؤُود.»

كُنْتُ قَدْ كَتَبْتُ عَنْوَانِي عَلَى مَكْتَبِ بَرِيدِ لُود، لِعَدَمِ رَغْبَتِي فِي أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِنَيْتِي. وَمَرَّ الْوَقْتُ بِطُءٍ، وَبَعْدَ أُسْبُوعٍ، ذَهَبْتُ إِلَى مَكْتَبِ الْبَرِيدِ اسْتَفْسِرُ عَنْ وَصُولِ رَسَائِلِ بِاسْمِي؛ وَوَجَدْتُ رِسَالَةً وَاحِدَةً مِنْ سَيِّدَةِ اسْمُهَا فِيرْفَاكْسُ تُقِيمُ فِي ثُورْنْفيلد هُول بِالْقُرْبِ مِنْ مِيلْكُوت، تَطْلُبُ مِنِّي الْقِيَامَ بِتَعْلِيمِ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا، بِأَجْرِ مِقْدَارِهِ ثَلَاثُونَ جُنْيَهًا سَنَوِيًّا، وَطَلَبْتُ مِنِّي سُرْعَةَ الرَّدِّ بِالْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ.

بَدَا مِنْ خَطِّ الرِّسَالَةِ أَنَّ كَاتِبَتَهَا عَجُوزٌ، وَرُحْتُ أَنْسَجُ حَوْلَهَا وَحَوْلَ ثُورْنْفيلد صُورًا رَائِعَةً مِنْ خِيَالِي.

ذَهَبْتُ لِأَخْبِرَ النَّاطِرَةَ الْجَدِيدَةَ بِأَنِّي وَجَدْتُ عَمَلًا، وَطَلَبْتُ مِنْهَا أَنْ تَقُومَ بِإِبْلَاغِ السَّيِّدِ بُرو كُلْهَرست عَنْ عَزْمِي عَلَى تَرْكِ الْمَدْرَسَةِ، فَأَجَابَ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ لِلْسَّيِّدَةِ رِيدَ خَالَتِي لِأُبْلِغَهَا ذَلِكَ. وَعِنْدَمَا كَتَبْتُ لَهَا، وَصَلَنِي رَدُّهَا الَّذِي تَقُولُ فِيهِ: «أَنْتِ حُرَّةٌ! إِفْعَلِي مَا تَشَائِنِ، وَادْهَبِي إِلَى حَيْثُ تُرِيدِينَ، أَنَا لَا أَوْدُ أَنْ أَعْرِفَ عَنْكَ شَيْئًا.»

كَتَبْتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْسَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْسُ أَخْبِرُهَا بِقَبُولِي الْوَظِيفَةِ، وَأَعْلَمُهَا بِأَنِّي سَأَكُونُ فِي ثُورْنْفيلد هُول بَعْدَ أُسْبُوعَيْنِ. وَمَرَّ الْأُسْبُوعَانِ بِسُرْعَةٍ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابِقِ لِرَحِيلِي، وَحَيْثُ جَلَسْتُ أُسْتَرِيحُ، حَضَرَتِ الْخَادِمَةُ لِتُخْبِرَنِي بِوُجُودِ زَائِرٍ لِي فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ. أَسْرَعْتُ لِأَرَى مَنْ يَكُونُ الزَّائِرُ؛ فَأَقْبَلْتُ عَلَيَّ امْرَأَةً تَقُولُ بِلَهْفَةٍ: «إِنَّهَا هِيَ بَعِينُهَا. أَلَا تَعْرِفِينَنِي يَا جِين، هَلْ نَسِيتِ صَدِيقَتَكَ بَسِي؟»

كَانَتْ بَسِي قَدْ تَزَوَّجَتْ، وَرُزِقَتْ بِابْنَةٍ سَمَّيْتُهَا جِين - كَاسْمِي -

وَحَدَّثَنِي عَنْ عَائِلَةَ رِيدَ قَائِلَةً: «لَقَدْ أَصْبَحَ جُونُ رَجُلًا مُسْرِفًا سَكِيرًا مُسْتَهْتَرًا؛ وَكَانَتْ جُورْجِيَانَا عَلَى وَشِكِ الزَّوْاجِ مِنْ عَامٍ مَضَى، وَلَكِنْ أَخْتَهَا إِلِيزَا لَمْ تَرْضَ عَنْ ذَلِكَ وَمَنَعَتْ زَوَاجَهَا.»

وَشَعَرْتُ بِأَنَّ الْحَيَاةَ فِي غَيْشِهَيْدِ هُولَ كَانَتْ لَا تَزَالُ مَلَأَى بِالْمَآسِي. وَسَأَلْتَنِي بَسِي عَمَّا إِذَا كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ أَيَّ أَخْبَارٍ عَنْ أُسْرَةِ وَالِدِي وَأَجَبْتُ بِالنَّفْيِ. ثُمَّ قَالَتْ:

«كَانَتْ السَّيِّدَةُ رِيدَ تَقُولُ دَائِمًا إِنَّهُمْ فَقَرَاءُ مُعْدِمُونَ، وَلَكِنْ مُنْذُ نَحْوِ سَبْعِ سَنَوَاتٍ حَضَرَ إِلَى غَيْشِهَيْدِ هُولَ زَائِرٌ يُدْعَى السَّيِّدُ إِيرَ، وَطَلَبَ أَنْ يَرَاكَ. وَكَانَ رَجُلًا مَهِيًّا وَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ فَقِيرٌ. وَأَخْبَرْتُهُ السَّيِّدَةُ رِيدَ أَنَّكَ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَكَانَ لِسُوءِ الْحِظِّ يُوشِكُ عَلَى السَّفَرِ فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ عَبْرَ الْبَحَارِ، فَلَمْ يَتِمَّكَ مِنْ زِيَارَتِكَ فِي لُؤُود.»

سَأَلْتُهَا: «إِلَى أَيْنَ سَافِرًا يَا بَسِي؟ هَلْ تَتَذَكَّرِينَ؟»

أَجَابَتْ: «قَالَ إِنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى جَزِيرَةٍ يُصَنِّعُونَ فِيهَا مُتَّجَاتِ الْكُرومِ، وَلَا أَتَذَكَّرُ اسْمَهَا.»

وَسَأَلْتُ: «هَلْ كَانَتْ مَادِيرَا؟»

أَجَابَتْ: «نَعَمْ! نَعَمْ! هَذَا هُوَ الْاسْمُ.»

لَمْ تَكُنْ بَسِي تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ السَّيِّدِ رِيدَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَانْتَقَلَ بِنَا الْحَدِيثُ إِلَى مَوَاضِعَ شَتَّى حَتَّى حَانَ وَقْتُ ذَهَابِهَا.

فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ذَهَبْتُ إِلَى ثُورْنْفِيلْدِ هُولَ لِمُوَاجَهَةِ مُسْتَقْبَلِي كُلِّهِ.

الفصل التاسع

كَانَتِ الرَّحْلَةُ إِلَى مِيلَكُوتٍ طَوِيلَةٍ وَشَاقَّةٍ. تَرَكْتُ لُوُودَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا، وَلَمْ تَصِلْ بِنَا الْمَرْكَبَةُ إِلَّا فِي الثَّامِنَةِ مَسَاءً، حَيْثُ وَقَفْتُ أَمَامَ فُنْدُقِ جُورْج، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ لِسُوءِ الْحَظِّ نِهَايَةَ الرَّحْلَةِ.

قَابَلَنِي رَجُلٌ اسْمُهُ جُون، وَأَخَذَنِي مَعَهُ فِي عَرَبَةٍ حَمَلْتَنَا إِلَى ثُورْنْفِيلْد هُول، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ مُظْلِمَةً، وَلَمْ أَتَبَيَّنْ شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الطَّرِيقِ.

عِنْدَمَا وَصَلْنَا، فَتَحَتْ لَنَا الْبَابَ خَادِمَةٌ وَأَخَذَتْنَا فِي الْحَالِ إِلَى حُجْرَةِ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْس. وَلَمْ تَكُنِ الْحُجْرَةُ فَسِيحَةً وَلَكِنَّهَا بَدَتْ مُرِيحَةً وَدَافِئَةً، وَشَعَرْتُ بِالْإِزْتِيَاكِ نَحْوِ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْس حَالَمَا وَقَعَ نَظْرِي عَلَيْهَا.

كَلَّمْتَنِي بِعَطْفٍ وَحَنَانٍ. قَالَتْ: «تَعَالَى قُرْبَ الْمَدْفَأَةِ. لَا بُدَّ أَنَّكَ مُتَعَبَةٌ وَتَشْعُرِينَ بِالْبُرْدِ بَعْدَ رِحْلَتِكَ الطَّوِيلَةِ! مَا رَأَيْتُكَ فِي بَعْضِ الطَّعَامِ؟»

كَانَتِ السَّيِّدَةُ فِي نَحْوِ السِّتِينَ مِنْ عُمْرِهَا، صَغِيرَةٌ الْحَجْمِ، تَرْتَدِي مَلَابِسَ يَرْجِعُ عَهْدُهَا إِلَى أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا.

تَحَدَّثْنَا أَثْنَاءَ تَنَاوُلِي الطَّعَامِ. وَعَلِمْتُ مِنْهَا أَنَّ تِلْمِيزَتِي الصَّغِيرَةَ لَيْسَتْ ابْنَتَهَا، وَأَنَّهَا هِيَ نَفْسُهَا تَشْغُلُ مَرْكَزَ مُدِيرَةٍ لِثُورْنْفِيلْد هُول، وَلَيْسَتْ صَاحِبَةَ الْمَنْزِلِ.

عِنْدَمَا فَرَعْتُ مِنَ الْعِشَاءِ، أَخَذَتْنِي إِلَى حُجْرَتِي فِي الطَّابَقِ الْعُلَوِيِّ، وَكَانَتْ مِثْلَ حُجْرَةِ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْس صَغِيرَةً وَلَكِنَّهَا مُرِيحَةٌ.

نِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَوْمًا عَمِيقًا، وَشَعَرْتُ بِأَنِّي عَلَى بَابِ مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ
سَعِيدَةٍ مِنْ حَيَاتِي.

فِي الصَّبَاحِ، كَانَ الْجَوُّ صَحْوًا وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةً، مِمَّا أَشْعَرَنِي بِالسَّعَادَةِ
وَالْأَمَانِ. ارْتَدَيْتُ مَلَابِسِي عَلَى عَجَلٍ، وَرُحْتُ أَسْتَكْشِفُ بَاقِيَ الْمَنْزِلِ.
كَانَتْ غُرْفُهُ كُلُّهَا، عَدَا غُرْفَتِي وَغُرْفَةَ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْسَ، كَبِيرَةً وَمَمْفُوشَةً
بِأَثَاثٍ ثَمِينٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَسُودُهَا جَوٌّ يُشْعِرُ بِالْفَرَاغِ وَالْوَحْدَةِ.

خَرَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ، فَرَأَيْتُ الْبَيْتَ مُنْعَزِلًا تَمَامًا، تُحِيطُ بِهِ التَّلَالُ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَعَلَى بُعْدٍ مِنْهُ رَأَيْتُ قَرْيَةً صَغِيرَةً. وَبَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَدِيقَةِ
حَضَرَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسَ وَقَالَتْ بِابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ:

«صَبَاحَ الْخَيْرِ! أَرَاكِ تَتَطَلَّعِينَ إِلَى الْمَنْزِلِ. إِنَّهُ مَنْزِلٌ جَمِيلٌ، وَأَخْشَى أَلَّا
يُظَلَّ عَلَى جَمَالِهِ إِذَا اسْتَمَرَّ صَاحِبُهُ يُكْثِرُ مِنَ السَّفَرِ.»
سَأَلْتُ: «مَنْ صَاحِبُهُ؟»

قَالَتْ: «السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَر. مَا أَغْبَانِي! لَقَدْ نَسِيتُ أَنْ أَذْكَرَ لَكَ اسْمَهُ مِنْ
قَبْلُ.»

سَأَلْتُ: «هَلْ هِيَ ابْنَتُهُ الَّتِي سَأَقُومُ بِتَعْلِيمِهَا؟»
أَجَابَتْ: «لَا! هِيَ طِفْلَةٌ يَتِيمَةٌ تَعَهَّدَ السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَر بِرِعَايَتِهَا عِنْدَ وَفَاةِ
وَالِدَتِهَا. وَقَدْ أَحْضَرَهَا مَعَهُ مِنْ فَرَنْسَا وَاسْمُهَا أَدِيلَ فَارِينَز. هَا هِيَ مُقْبِلَةٌ
عَلَيْنَا.»



أَقْبَلَتِ الْفَتَاةُ وَمَعَهَا وَصِيفَتُهَا، وَكَانَتَا تَتَحَدَّثَانِ مَعًا بِالْفَرَنْسِيَّةِ، وَأَخْبَرَتْنِي
السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكُسُ بِمَا لَاقَتْهُ مِنْ صُعُوبَاتٍ فِي التَّفَاهُيمِ مَعَ أَدِيلَ عِنْدَ
وُصُولِهَا. فَقَدْ كَانَتْ أَدِيلُ وَوَصِيفَتُهَا تَجْهَلَانِ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ تَمَامًا، وَلَمْ
يَكُنْ فِي ثُورْنِفِيلْدِ هُوْلَ مَنْ يَعْرِفُ الْفَرَنْسِيَّةَ. ثُمَّ قَالَتْ: «وَلَكِنْ أَدِيلُ نَبِيهَةٌ

وَتَتَعَلَّمُ بِسُرْعَةٍ، وَقَدْ بَدَأَتْ أَفْهَمُ مَا تَقُولُ. مِسْكِينَةٌ! لَا شَكَّ أَنَّهَا تُوَاجِهُ
مَشَاكِلَ كَثِيرَةً فِي هَذَا الْجَوِّ الْغَرِيبِ عَنْهَا.»

بَدَأَتْ أَتَحَدَّثُ مَعَ أَدِيلَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ، وَسُرَّتُ لِدَلِكِ كَثِيرًا. وَأَثْنَاءَ الْإِفْطَارِ
حَدَّثْتَنِي عَنِ الْحَيَاةِ فِي فَرَنْسَا. وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أُنْسَى أَنِّي أَتَحَدَّثُ إِلَى طِفْلَةٍ
لَا زَالَتْ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا.

وَبَعْدَ الْإِفْطَارِ، ذَهَبْنَا مَعًا إِلَى الْمَكْتَبَةِ، وَوَجَدْتُ فِي أَدِيلَ طِفْلَةً مُتَوَسِّطَةً
الذِّكَا لَا تَسْتَقِرُّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ طَوِيلًا، وَرَأَيْتُ أَنَّ أَقْتَصَرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ
الْأَوَّلِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الدِّرَاسَةِ حَتَّى الظُّهْرِ.

طُفْتُ مَعَ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْسَ دَاخِلَ الْمَنْزِلِ، وَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْحُجَرَاتِ
الْجَمِيلَةِ وَلَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ بَدَا فَارِعًا تَنْقُصُهُ الْحَيَاةُ. وَسَأَلْتُهَا عَنِ السَّيِّدِ
رُوْتِشِسْتِرَ وَعَمَّا إِذَا كَانَتْ تُحِبُّهُ.

أَجَابَتْ: «نَعَمْ هُوَ دَائِمُ الْعَطْفِ عَلَيَّ، وَلَقَدْ مَضَتْ عَلَيَّ سَنَوَاتٌ طَوِيلَةٌ
فِي خِدْمَتِهِ، وَلَمْ أَجِدْ مِنْهُ مَا يُعَكِّرُ صَفْوَةَ حَيَاتِي، وَلَكِنَّ هُنَاكَ كَثِيرِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُ غَرِيبُ الْأَطْوَارِ مُتَقَلِّبٌ.»

سَأَلْتُ: «لِمَاذَا؟»

أَجَابَتْ: «لَا أَعْلَمُ كَيْفَ أَفْسِرُ لَكَ ذَلِكَ. فَفِي أَغْلَبِ الْأَخْيَانِ يَضَعُ
الْتَّمِيزُ مَا إِذَا كَانَ جَادًّا أَوْ هَازِلًا، رَاضِيًّا أَوْ غَاضِبًا، وَلَكِنَّهُ بِصِفَةِ عَامَّةٍ
إِنْسَانٌ طَيِّبٌ مَحْبُوبٌ.»

أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ الْمَزِيدَ، وَلَكِنَّهَا تَوَقَّفَتْ عَنِ الْحَدِيثِ، وَكُنَّا قَدْ

وَصَلْنَا إِلَى الطَّابِقِ الثَّالِثِ. فِي هَذَا الطَّابِقِ كَانَتِ الْحُجُرَاتُ صَغِيرَةً مُظْلِمَةً، تَبَعْتُ فِي الْمَرَّةِ شُعُورًا بِالرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ.

سَأَلْتُ: «هَلْ يَنَامُ أَحَدٌ هُنَا؟»

أَجَابَتْ: «لَا، إِنَّ حُجُرَاتِ نَوْمِ الْخَدَمِ تَقَعُ كُلُّهَا فِي أَعْلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْبِنَاءِ.» ثُمَّ ضَحِكَتْ وَقَالَتْ: «لَوْ كَانَ هُنَاكَ شَبَحٌ فِي ثُورْنِفِيلْد هُوَ لَا تَخَذَلُهُ مَقَرًّا هُنَا.»

بَلَّغْنَا بَابًا صَغِيرًا يُؤَدِّي إِلَى السَّطْحِ، وَخَرَجْنَا مِنْهُ لِنَتَمَتَّعَ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ بِمَنْظَرِ التَّلَالِ الْمُحِيطَةِ بِنَا. وَكَانَ الْمَنْظَرُ فِي الْحَقِيقَةِ خَلَابًا، فَلَبِثْنَا قَلِيلًا ثُمَّ عُدْنَا إِلَى الْغُرْفَةِ، وَعِنْدَهَا سَمِعْتُ صَوْتًا غَرِيبًا وَمُخِيفًا، صَوْتًا يَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالصَّيَاحِ، فَتَسَاءَلْتُ: «مَا هَذَا؟ هَلْ سَمِعْتِ؟»

رَدَّتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ قَائِلَةً: «لَا شَيْءَ! رُبَّمَا كَانَ أَحَدُ الْخَدَمِ، أَوْ قَدْ تَكُونُ جَرِيسُ بُوُولٍ، وَهَذَا أَرْجَحُ، فَهِيَ تَحْضُرُ هُنَا كَثِيرًا لِتُسَاعِدَ فِي الْحَيَاكَةِ.»

تَرَدَّدَ الصَّوْتُ ثَانِيَةً وَلَكِنْ بِنَبَرَاتٍ أَهْدَأَ، وَلَوْ أَنَّهُ ظَلَّ مُخِيفًا مُرْعِبًا. كَانَ صَوْتُ ضِحْكَةٍ وَلَكِنَّهَا ضِحْكَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ السَّعَادَةِ تَمَامًا.

فُتِحَ بَابُ غُرْفَةٍ وَخَرَجْتُ مِنْهَا امْرَأَةً فِيمَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ، ذَاتُ شَعْرٍ أَحْمَرَ وَقَوَامٍ مَمْتَلِيٍّ، لَمْ يَكُنْ مَنْظَرُهَا غَرِيبًا أَوْ مُخِيفًا. وَقَالَتْ لَهَا السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ: «لِمَ كُلُّ هَذِهِ الضَّجَّةِ؟ تَذَكَّرِي مَا قُلْتَهُ لَكَ يَا جَرِيسُ.» ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَيَّ تَسْأَلْنِي: «كَيْفَ وَجَدْتِ أَدِيلَ هَذَا الصَّبَاحِ؟» وَظَلَلْنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَدِيلَ حَتَّى هَبَطْنَا إِلَى الطَّابِقِ السُّفْلِيِّ.

الفصل العاشر

اسْتَمَرَّتْ حَيَاتِي فِي ثُورْنْفِيلْد هُوْل هَادِيَّةً مُسْتَقَرَّةً، وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ
فَيْرْفَاكْس طَيِّبَةً رَحِيمَةً، كَذَلِكَ كَانَتْ أَدِيل مُجْتَهِدَةً تَوَاقَةً لِلتَّعْلِيمِ.
وَتَعَلَّمَتِ الْكَثِيرَ، وَلَكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، كُنْتُ أَشْعُرُ أحيانًا بِالْمَلَلِ
وَأَرْغَبُ فِي الْإِثَارَةِ وَالتَّغْيِيرِ. وَكُنْتُ أَصْعَدُ إِلَى السَّطْحِ أَرْنُو إِلَى الْعَالَمِ
الْخَارِجِيِّ حَيْثُ أَرَدْتُ أَنْ أَكُونُ.

كَانَ صَوْتُ ضَحِكَاتِ جَرِيس بُوول الْمُزْعِجِ لَا يَزَالُ يَتَرَدَّدُ فِي أُذُنِي،
وَكُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنْ أَنْ لِي آخَرَ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ هَادِيَّةً فِي مُعْظَمِ الْأَوْقَاتِ. وَفِي
أَحَدِ أَيَّامِ يَنَائِرِ أُصِيبْتُ أَدِيلُ بِنَزْلَةٍ بَرْدٍ، وَلَزِمْتُ فِرَاشَهَا، وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ
فَيْرْفَاكْسُ تُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى الْقَرْيَةِ لِإِرْسَالِ خِطَابٍ كَتَبَتْهُ، فَتَطَوَّعْتُ بِأَخْذِهِ
بَدَلًا مِنْهَا. وَكَانَتْ الْقَرْيَةُ قَرِيبَةً لَا تَبْعُدُ عَنَّا سِوَى مِيلَيْنِ، وَكَانَ الْجَوُّ بَارِدًا
وَلَكِنَّهُ صَحْوٌ.

تَرَكْتُ ثُورْنْفِيلْدَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَأَخَذْتُ أَصْعَدُ الطَّرِيقَ
إِلَى الْقَرْيَةِ الْوَاقِعَةِ عَلَى تَلٍّ، وَتَوَقَّفْتُ بَعْدَ حِينٍ وَاسْتَنْدْتُ إِلَى جِدَارٍ
لِاسْتَرِيحٍ. وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ سَمِعْتُ صَوْتًا، وَشَاهَدْتُ رَجُلًا يَمْتَطِي
صَهْوَةً حِصَانِهِ، وَكَلْبًا يَجْمَعُ شَعْرُهُ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ يَعْدُو خَلْفَ
الْحِصَانِ. مَرَّ الْفَارِسُ وَالْكَلْبُ بِسُرْعَةٍ، وَاسْتَأْنَفْتُ سَيْرِي. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ
سَمِعْتُ صَوْتًا مُزْعِجًا ثُمَّ رَأَيْتُ الْحِصَانَ وَقَدْ انْزَلَقَ فَوْقَ الْجَلِيدِ بَيْنَمَا
سَقَطَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَرْضِ. أَخَذَ الْكَلْبُ يَدَوْرَ حَوْلِهِ وَيَنْبَحُ نُبَاحًا مُسْتَمِرًّا
وَكَأَنَّهُ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ. وَأَسْرَعْتُ لِنَجْدَتِهِ، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الْمَكَانِ كَانَ

الحِصَانُ قَدْ نَهَضَ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ ظَلَّ عَلَى حَالِهِ.
سَأَلَتْهُ: «هَلْ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَقْدِمَ أَيَّ مُسَاعَدَةٍ؟»
أَجَابَ بِلَهْجَةٍ تَكَادُ تَكُونُ فَظَّةً: «لَا! أَرْجوكِ أَنْ تَبْتَئِدِي عَنْ طَرِيقِ
الحِصَانِ.»

قُلْتُ: «أَرَاكَ عَاجِزًا عَنِ النَّهْوِضِ فَهَلْ أَسْتَدْعِي لَكَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ
الْقَرْيَةِ؟»

أَجَابَ: «لَا، أَشْكُرُكِ!»
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْكَلْبِ الَّذِي اسْتَمَرَّ فِي بُبَاخِهِ وَنَهْرَهُ قَائِلًا: «اسْكُتْ يَا
بَيْلُوت.»



حَاوَلَ النُّهُوضَ، وَأَدْرَكَتْ مِنْ مَلَامِحِ وَجْهِهِ أَنَّ سَاقَهُ كَانَتْ تُؤْلِمُهُ كُلَّمَا حَرَّكَهَا.

كَانَ يُنَاهِزُ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ، مُتَوَسِّطَ الْقَامَةِ، تَدُلُّ مَلَامِحُ وَجْهِهِ عَلَى الْجِدِّ وَالصَّرَامَةِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ خُشُونَةِ مُعَامَلَتِهِ، لَمْ أُوجِسْ مِنْهُ خِيفَةً كَعَادَتِي عِنْدَ مُقَابَلَةِ الْغُرَبَاءِ.

أَلْحَحْتُ بِالسُّؤَالِ قَائِلَةً: «كَيْفَ أَتْرُكُكَ هَكَذَا يَا سَيِّدِي فِي هَذَا الْوَقْتِ مِنَ الْمَسَاءِ؟! دَعْنِي أُسَاعِدُكَ.»

قَالَ: «حَسَنًا، أُمْسِكِي لِي الْحِصَانَ، وَلَكِنْ خُذِي حَذَرَكَ، فَهُوَ يَرْفُسُ أَخْيَانًا.»



بَذَلْتُ جَهْدِي كَيْ أُمْسِكَ الْحِصَانَ فَلَمْ أَتِمَّكَ، وَقَالَ الرَّجُلُ: «لَا بَأْسَ
أَتْرَكِيهِ وَحْدَهُ فَهُوَ يَخَافُ لِأَنَّكَ غَرِيبَةٌ عَنْهُ. أَعْطِنِي يَدَكَ فَرُبَّمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ
أَنْهَضَ بِمُعَاوَنَتِكَ.»

نَهَضَ الرَّجُلُ بِصُعُوبَةٍ رَغِمَ مَا يُعَانِيهِ مِنَ الْأَلَمِ، وَأَمْسَكَ بِالْحِصَانِ
ثُمَّ قَالَ: «وَالآنَ أَتِيهَا الشَّابَّةُ، عُدِّي إِلَى مَنْزِلِكَ بِسُرْعَةٍ، فَقَدْ تَأَخَّرَ بِكَ
الْوَقْتُ. أَأَيْنَ تَسْكُنِينَ؟»

فَاشْرَتْ إِلَى الْوَادِي الَّذِي تَحْتَنَا حَيْثُ دَارُ ثُورْنِفِيلْد هُوَلْ وَقُلْتُ:
«هُنَاكَ.»

سَأَلَنِي: «مَنْ صَاحِبُ الْبَيْتِ؟»

أَجَبْتُ: «السَّيِّدُ رُوثْشِستر.»

سَأَلَنِي: «هَلْ تَعْرِفِينَ رُوثْشِسترَ هَذَا؟»

أَجَبْتُ: «كَلَّا، لَمْ أَرَهُ فِي حَيَاتِي.»

سَأَلَ: «أَلَيْسَ مُقِيمًا فِي مَنْزِلِهِ؟»

أَجَبْتُ: «لَا.»

سَأَلَ: «أَيْنَ هُوَ إِذَا؟»

أَجَبْتُ: «لَا أَدْرِي.»

سَأَلَنِي وَهُوَ يَتَأَمَّلُ مَلَابِسِي: «أَتَعْمَلِينَ هُنَاكَ؟ هَلْ أَنْتِ خَادِمَةٌ؟»

أَجَبْتُ: «كَلَّا، أَنَا مُرَبِّيةٌ أَقُومُ بِتَعْلِيمِ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ هُنَاكَ.»
قَالَ مُتَمَتِّمًا لِنَفْسِهِ: «مُرَبِّيةٌ! كَيْفَ نَسِيتُ ذَلِكَ؟!» ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قَائِلًا: «هَيَّا
أَسْرِعِي فِي الْعُودَةِ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الظَّلَامُ.»
قُلْتُ: «إِنِّي ذَاهِبَةٌ أَوَّلًا إِلَى مَكْتَبِ بَرِيدِ الْقَرْيَةِ لِأُرْسِلَ خُطَابًا، ثُمَّ أَعُودُ.»
قَالَ: «أَسْرِعِي إِذَا.»

إِمْتَطَى جَوَادُهُ وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ، وَسَرْتُ فِي طَرِيقِي أَفَكَّرُ فِي هَذِهِ
الْمُقَابَلَةِ الَّتِي بَدَتْ مُثِيرَةً وَإِنْ كَانَتْ تَافِهَةً. وَرُحْتُ أَتَكَهَّنُ فَيَمَنْ يَكُونُ
ذَلِكَ الشَّخْصُ الْغَرِيبُ صَاحِبُ الشَّعْرِ الْأَسْوَدِ وَالْوَجْهِ الصَّارِمِ.
لَمْ أُرِدِ الْعُودَةَ إِلَى ثُورْنْفِيلْد تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَدْ كُنْتُ أَكْثَرَ قَلَقًا مِنْ أَيِّ وَقْتٍ
مَضَى. وَعِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ، أَذْهَشَنِي أَنْ أَرَى كُلَّ غُرْفِ الطَّابِقِ
السُّفْلِيِّ مُضَاءَةً، وَسَمِعْتُ أَدِيلَ وَالسَّيِّدَةَ فِيرْفَاكْسَ تَتَحَدَّثَانِ إِلَى رَجُلٍ.
تَرَى مَاذَا حَدَّثَ وَمَنْ الزَّائِرُ؟

دَخَلْتُ حُجْرَةَ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْسَ فَوَجَدْتُ كَلْبًا يَرْقُدُ أَمَامَ الْمِدْفَاقِ، كَانَ
نَفْسَ الْكَلْبِ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الطَّرِيقِ. هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ؟ دَنَوْتُ مِنْهُ بِحَذَرٍ
وَنَادَيْتُ: «يَيْلُوت!» فَهَضَّ وَأَقْبَلَ نَحْوِي، وَتَأَكَّدْتُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قَابَلْتُهُ
فِي الطَّرِيقِ، صَاحِبَ هَذَا الْكَلْبِ، هُوَ نَفْسُهُ السَّيِّدُ رُوثْشِستِرُ صَاحِبُ
ثُورْنْفِيلْد هُول.

الفصل الحادي عشر

لَمْ أَلْتَقِ بِالسَّيِّدِ رُوْتِشْسْتَرِ حَتَّى مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِيِ حِينَ أَبْلَغْتَنِي السَّيِّدَةُ
فِيرْفَاكُسَ أَنَّهُ دَعَانِي وَأَدِيلَ لِنَتَنَاوَلَ مَعَهُ الشَّايَ. وَعِنْدَمَا دَخَلْنَا غُرْفَةَ
الْجُلُوسِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْنَا، فَجَلَسْنَا وَانْتَظَرْنَا، ثُمَّ بَدَأَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكُسَ
تَتَحَدَّثُ عَنِ الْجَوِّ، وَاكْتَفَى السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَرِ بِطَلَبِ الشَّايِ. وَلَمَّا سَأَلْتُهُ
أَدِيلَ عَنِ الْهَدِيَّةِ الَّتِي وَعَدَهَا بِهَا، لَمْ يُجِبْهَا.

مَرَّ عَلَيْنَا نَحْوَ نِصْفِ سَاعَةٍ ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَجَاءَ وَبَدَأَ يَسْأَلُنِي عَنْ حَيَاتِي،
وَعَنْ عَائِلَتِي، وَعَنْ الْمَدْرَسَةِ، وَعَنْ السَّيِّدِ بُرُو كِلِهْرِسْت. ثُمَّ سَأَلَنِي: «هَلْ
تَعْرِفِينَ عَلَى الْبَيَانُ؟»

أَجَبْتُ: «قَلِيلًا يَا سَيِّدِي.»

قَالَ: «إِذَا أَسْمِعِينَا بَعْضًا مِنْ عَزْفِكَ. اِذْهَبِي إِلَى الْمَكْتَبَةِ وَاعْرِفِي عَلَى
الْبَيَانُ الْمَوْجُودِ هُنَاكَ.»

وَبَعْدَ أَنْ عَزَفْتُ قَلِيلًا عَلَى الْبَيَانُ نَادَانِي قَائِلًا: «هَذَا يَكْفِي.» ثُمَّ سَأَلَنِي
عَنْ أَعْمَالِي الْفَنِيَّةِ، فَأَرَيْتُهُ بَعْضَ لَوْحَاتِي الَّتِي رَسَمْتُهَا وَلَوْنْتُهَا، فَسَأَلَ
مُنْدَهَشًا: «هَذَا عَمَلُكَ؟ مَنْ عَاوَنُكَ؟»

أَجَبْتُ: «لَا أَحَدَ.»

اسْتَمَرَّ الْحَدِيثُ بَيْنَنَا، وَلَمْ أَرَهُ يَبْتَسِمُ قَطُّ طَوَالَ الْمَسَاءِ، وَكَانَ فِي
الْحَقِيقَةِ فُظًّا، وَلَكِنِّي لَمْ أَبَالِ. وَقَدْ اسْتَمْتَعْتُ بِهَذَا التَّغْيِيرِ، وَخَاصَّةً بَعْدَ

أَنْ أَمْضَيْتُ لِيَالِي عَدِيدَةً بِمُفْرَدِي مَعَ السَّيِّدَةِ فَيْرَفَاكُسَ.

فِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ قَالَ فَجَاءَتْ: «طَابَ مَسَاوُكُمْ.» وَتَرَكْنَا.

سَأَلْتُ السَّيِّدَةَ فَيْرَفَاكُسَ وَنَحْنُ نَضَعُ السَّلَامَ عَمَّا إِذَا كَانَ سُلوْكُهُ دَائِمًا
فَطَّأً هَكَذَا، فَظَهَرَتْ عَلَيْهَا الدَّهْشَةُ وَقَالَتْ: «هَلْ بَدَأَ لَكَ فَطَّأٌ؟ رُبَّمَا كَانَ
كَذَلِكَ، وَلَكِنِّي أَلْفَتْهُ بَعْدَ عَشْرَةِ هَذِهِ السَّنِينَ الطَّوَالِ، وَلَا أَخْفِي عَلَيْكَ يَا
جِينُ أَنَّ حَيَاتَهُ كَانَتْ كُلُّهَا مَتَاعِبَ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ مَا رَأَيْتَ مِنْ
غَرَابَةٍ فِي تَصَرُّفَاتِهِ.»

سَأَلْتُهَا: «وَمَا هِيَ هَذِهِ الْمَتَاعِبُ؟»

أَجَابَتْ: «لَسْتُ أَذْرِي، وَكُلُّ مَا أَعْرِفُهُ هُوَ أَنَّ أَبَاهُ وَأَخَاهُ بَقِيَا غَاظِبَيْنِ
عَلَيْهِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، وَلَمْ يُمِدَّاهُ بِمُسَاعَدَةٍ أَوْ مَالٍ. وَلَمْ يَعُدْ إِلَى ثُورْنْفِيلْد
هُولَ إِلَّا مُنْذُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ بَعْدَ أَنْ مَاتَ وَالِدُهُ وَأَخُوهُ، وَكَمَا رَأَيْتَ مَا زَالَ
يَتَغَيَّبُ طَوِيلًا عَنْ هُنَا.» وَلَمْ تَزِدِ السَّيِّدَةُ فَيْرَفَاكُسَ عَلَى ذَلِكَ، وَخَجِلْتُ أَنْ
أَطْلُبَ الْمَزِيدَ.

لَمْ أَكُنْ أَرَى السَّيِّدَ رُوثْشِسترَ إِلَّا نَادِرًا، وَكَانَ يَتَسِمُ فِي وَجْهِهِ فِي بَعْضِ
الْأَوْقَاتِ وَيَتَجَاهَلُنِي تَمَامًا فِي الْبَعْضِ الْآخِرِ.

وَذَاتَ مَسَاءٍ أُرْسِلَ يَسْتَدْعِينِي أَنَا وَأَدِيلُ وَالسَّيِّدَةُ فَيْرَفَاكُسَ. وَعِنْدَمَا
دَخَلْنَا حُجْرَةَ الْجُلُوسِ أُعْطِيَ أَدِيلُ الْهَدِيَّةَ الَّتِي وَعَدَهَا بِهَا، وَطَلَبَ مِنْهَا
أَنْ تَنْصَرِفَ لِتَفْتَحَهَا مَعَ السَّيِّدَةِ فَيْرَفَاكُسَ. وَبَعْدَ أَنْ انْصَرَفَتَا سَأَلَنِي: «أَنِسَةُ
إِير! هَلْ تَرَيْنَنِي وَسِيمَ الطَّلَعَةِ؟»

دَهَشْتُ لِهَذَا السُّوَالِ، وَقَبَّلَ أَنْ أَفْكَرَ أَجَبْتُ: «كَلاَّ يَا سَيِّدِي.»

ضَحِكَ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرَاهُ يَضْحَكُ وَقَالَ: «أَنْتِ حَقًّا فَتَاةٌ غَرِيبَةٌ
الْأَطْوَارِ. أَرَاكِ دَائِمًا هَادِئَةً مُؤَدَّبَةً وَدِيعَةً، وَالْآنَ أَفَاجَأُ بِصَرَاحَتِكَ
وَصِدْقِكَ! يُعْجِبُنِي ذَلِكَ فِيكَ، لِأَنِّي أَحِبُّ الصِّدْقَ وَالْأَمَانَةَ فِي الْقَوْلِ
وَالْعَمَلِ كَمَا أَكْرَهُ التَّمَلُّقَ وَالنِّفَاقَ.»

قُلْتُ: «أَنَا آسِفَةٌ يَا سَيِّدِي. لَقَدْ أَمْضَيْتُ حَيَاتِي بَعِيدَةً عَنْ آدَابِ
الْمُجْتَمَعَاتِ وَالْمُجَامَلَةِ.»

قَالَ: «لَا بَأْسَ، أَنَا سَعِيدٌ حَقًّا لِأَمَانَتِكَ وَصِدْقِكَ، أَلَا تَجْلِسِينَ مَعِيَ بُرْهَةً
تُحَدِّثْنِي؟ فَأَنَا أَشْعُرُ بِحَاجَةٍ لِمَنْ أَتَحَدَّثُ مَعَهُ فِي هَذَا الْمَسَاءِ.»

بَقِيتُ صَامِتَةً فَقَالَ: «أَرْجوكِ حَدِّثْنِي.»

قُلْتُ: «عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَا سَيِّدِي؟» وَلَمْ أَجِدْ مَا أَقُولُ، فَابْتَسَمَ وَقَالَ: «أُرِيدُ
أَنْ نَتَحَدَّثَ كَأَصْدِقَاءَ.»

قُلْتُ: «يُسْعِدُنِي ذَلِكَ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ مَا أَتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ
تَسْأَلَنِي وَأَنَا أَجِيبُ؟»

طَالَ حَدِيثُنَا وَامْتَدَّ. حَدَّثَنِي عَنْ حَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْنِي عَنْ نَوْعِ
الْمَتَاعِ الَّتِي صَادَفَتْهُ. قَالَ فَقَطْ إِنَّهَا عَسِيرَةٌ، وَإِنَّهُ ارْتَكَبَ أَخْطَاءَ نَدَمَ
عَلَيْهَا وَلَا يَزَالُ يُعَانِي عَوَاقِبَهَا. حَاوَلْتُ أَنْ أَخَفِّفَ عَنْهُ، وَلَكِنَّهُ بَدَأَ فِي
آخِرِ الْحَدِيثِ كَمَنْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ. وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ قَالَ فَجْأَةً: «طَابَ
مَسَاوِلُكِ!» فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ.

الفصل الثاني عشر

بَيْنَمَا كُنَّا نَسِيرُ فِي الْحَدِيقَةِ أَنَا وَأَدِيلُ قَابَلَنَا السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتِر، فَأَبْدَى رَغْبَتَهُ فِي أَنْ يُحَدِّثَنِي، وَطَلَبَ مِنْ أَدِيلِ أَنْ تَذْهَبَ وَتَلْهُوَ مَعَ الْكَلْبِ. وَبَدَأَ يُحَدِّثُنِي عَنْ وَالِدَةِ أَدِيلِ، فَقَدْ قَابَلَهَا فِي بَارِيسَ وَكَانَتْ تَعْمَلُ مُغْنِيَةً وَرَاقِصَةً، وَأَحَبَّهَا حُبًّا جَمًّا، إِلَّا أَنَّهَا تَرَكَّتُهُ وَذَهَبَتْ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ. وَتُوفِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ تَارِكَةً ابْنَتَهَا أَدِيلَ وَحِيدَةً دُونَ عَائِلٍ. وَتَعَهَّدَهَا بِرِعَايَتِهِ رَغْمَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ابْنَتَهُ، وَأَخْضَرَهَا مَعَهُ إِلَى إِنْجِلْتِرَا.

قَالَ: «عَجَبًا إِنَّكَ امْرَأَةٌ ذَاتُ سِحْرِ وَمَقْدِرَةٍ عَلَى جَعْلِ النَّاسِ يَفْتَحُونَ لَكَ سَرَائِرَهُمْ. فَهَآنَذَا أُحَدِّثُكَ عَنْ نَفْسِي بِكُلِّ سُهولةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ أَفْعَلْهُ قَطُّ.» ثُمَّ اسْتَمَرَ يُحَدِّثُنِي عَنْ سَيَلِينِ - وَالِدَةِ أَدِيلِ - وَكَانَ أَثْنَاءَ حَدِيثِهِ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى أَعْلَى حَيْثُ الطَّابِقُ الثَّالِثُ. وَكُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ الْهُرُوبَ مِنْ شَيْءٍ مَا، شَيْءٍ فَظِيعٍ وَرَهِيْبٍ لَمْ أَعْرِفْهُ.

بَدَأَ سُلُوكُهُ نَحْوِي يَتَغَيَّرُ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ، وَكَانَ يَبْدُو أَسْعَدَ حَالًا. وَكَثِيرًا مَا دَعَانِي مَعَ أَدِيلِ لِمَتَمُضِيَةِ بَعْضِ الْوَقْتِ مَعَهُ فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ. وَكُنَّا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ نَجْلِسُ، فَتَلْعَبُ أَدِيلُ مَعَ الْكَلْبِ، وَنَتَحَدَّثُ نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ. كَانَ حَدِيثُهُ شَائِقًا. حَدَّثَنِي عَنْ أَشْخَاصٍ وَأَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ كَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهَا فِي رِحَالَتِهِ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّا حَقًّا أَصْبَحْنَا صَدِيقَيْنِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ أَخْطَائِهِ أُعْجِبْتُ بِهِ، وَعَبَثًا حَاوَلْتُ أَنْ أَرْدَعَ نَفْسِي وَأَتَذَكَّرَ أَنَّهُ السَّيِّدُ وَمَا أَنَا إِلَّا مُرَبِّيَّةٌ مُسْكِينَةٌ.

الفصل الثالث عشر

مَضَى شَهْرَانِ عَلَى وُجُودِ السَّيِّدِ رُوْتِشْسْتَرِ فِي ثُورَنْفِيلْد هُول، وَأَثَارَ هَذَا دَهْشَةِ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْسَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ أَطَالَ مُدَّةَ بَقَائِهِ فِي ثُورَنْفِيلْد كُلِّ هَذَا الْوَقْتِ.

وَتَحَدَّثَ مَعِيَ كَثِيرًا أَثْنَاءَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَتَبَيَّنِ الشَّيْءَ الَّذِي كَانَ يَكْرَهُهُ فِي ثُورَنْفِيلْد هُول. وَفِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ كَانَ يَبْدُو سَعِيدًا أَثْنَاءَ حَدِيثِنَا فِي الْمَسَاءِ. وَلَكِنْ نَظَرَاتِ الْكَرَاهِيَّةِ وَالْأَسَى الَّتِي شَاهَدْتُهَا فِي الْحَدِيقَةِ كَانَتْ تُعَاوِذُهُ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ.

ذَاتَ لَيْلَةٍ، بَيْنَمَا كُنْتُ فِي فِرَاشِي أَفَكِّرُ، كَمَا فَكَّرْتُ مِنْ قَبْلُ، فِيمَا عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ سِرُّ السَّيِّدِ رُوْتِشْسْتَرِ الدَّفِينِ، سَمِعْتُ صَوْتًا خَارِجَ بَابِ مَخْدَعِي (غُرْفَةِ نَوْمِي). كَانَ صَوْتًا خَافِتًا يَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالصُّرَاخِ، صَوْتًا سَمِعْتُهُ مِنْ قَبْلُ. قُمْتُ مِنْ فِرَاشِي مُسْرِعَةً. فَسَكَتَ الصَّوْتُ بِضَعِ دَقَائِقَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي كُنْتُ أَحْلُمُ، وَإِذَا بِيَدٍ تُمَسِّكُ بِمِقْبَضِ الْبَابِ فَسَأَلْتُ مَذْعُورَةً: «مَنْ بِالْبَابِ؟» وَلَمْ يُجِبْنِي أَحَدٌ.

خِفْتُ وَلَكِنِّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ الْكَلْبَ بَيْلُوتَ يَطُوفُ فِي الْمَنْزِلِ لَيْلًا، فَاطْمَأَنَنْتُ نَفْسِي قَلِيلًا، وَعُدْتُ لِأَنَامَ. وَفَجْأَةً، سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَتَكَرَّرُ، وَكَانَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ أَعْلَى مِنَ الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ، وَصَادِرًا بِالْقُرْبِ مِنْ بَابِ مَخْدَعِي، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ أَقْدَامٍ تَصْعَدُ إِلَى الطَّابِقِ الثَّالِثِ. فَقُمْتُ بِهُدُوءٍ وَفَتَحْتُ الْبَابَ وَرَأَيْتُ خَارِجَهُ شَمْعَةً مُضَاءَةً. سَأَلْتُ نَفْسِي: «هَلْ



كَانَ ذَلِكَ حَقًّا صَوْتَ جَرِيسٍ بُوول؟ هَلْ هِيَ مَجْنُونَةٌ أَمْ كُنْتُ أَحْلَمُ؟»
وَقَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَدْعِيَ السَّيِّدَةَ فِيرَفَاكُسَ خَشِيَّةً أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ مَكْرُوهٌ.

كَانَ الْجَوْ خَارِجَ حُجْرَتِي مُشْبَعًا بِالدُّخَانِ الَّذِي رَأَيْتُهُ يَتَصَاعَدُ مِنْ حُجْرَةِ
السَّيِّدِ رُوْتِشْسْتَر. كَانَ بَابُ الْغُرْفَةِ مَفْتُوحًا، وَتَنَبَّعْتُ مِنَ الْحُجْرَةِ رَائِحَةُ
شَيْءٍ يَحْتَرِقُ. أَسْرَعْتُ إِلَى دَاخِلِ الْحُجْرَةِ، فَوَجَدْتُ السَّيِّدَ رُوْتِشْسْتَر
نَائِمًا وَالْفِرَاشَ يَحْتَرِقُ مِنْ حَوْلِهِ، حَاوَلْتُ إِيقَازَهُ فَلَمْ أَفْلِحْ، فَأَسْرَعْتُ
وَأَحْضَرْتُ بَعْضَ الْمَاءِ وَالْقَيْتُ فَوْقَ الْفِرَاشِ. خَمَدَتِ النَّارُ وَاسْتَيْقَظَ السَّيِّدُ
رُوْتِشْسْتَر يَسْأَلُ غَاضِبًا: «مَا الْخَبَرُ؟ مَاذَا حَدَثَ؟ مَا سَبَبُ هَذَا الْبَلِّ؟»

أَجَبْتُ: «كَانَتِ النَّارُ مُشْتَعِلَةً فِي الْفِرَاشِ فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهَا الْمَاءَ لِأُطْفِئَهَا.»
تَسَاءَلَ: «أَهْذِهِ أَنْتِ يَا جِين؟ مَاذَا أَتَى بِكِ إِلَى هُنَا فِي مُتَّصِفِ اللَّيْلِ؟»
قُلْتُ: «أَرْجُوكَ أَنْ تَنْهَضَ. فَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ فَظِيعٌ. اِنْتَظِرْ حَتَّى أَحْضِرَ
لَكَ شَمْعَةً.» ثُمَّ ذَهَبْتُ وَأَحْضَرْتُ الشَّمْعَةَ الَّتِي وَجَدْتُهَا خَارِجَ بَابِي.

سَأَلَنِي: «مَنْ فَعَلَ هَذَا؟» وَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ، وَأَضْغَى إِلَيَّ
فِي صَمْتٍ عَابَسَ الْوَجْهَ مُفَكِّرًا.

سَأَلْتُهُ: «هَلْ أَذْهَبُ وَأَوْقِظُ السَّيِّدَةَ فِيرَفَاكُسَ أَوْ أَحَدَ الْخَدَمِ؟»

قَالَ: «لَا! ماذا بوسعِهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا؟ اِسْمَعِي يَا جِين: سَأَتْرُكُكِ هُنَا بَضْعَ دَقَائِقَ. عِدِينِي أَنْ تَظَلِّي هُنَا حَتَّى أَعُودَ.»

تَرَكَنِي وَسَمِعْتُهُ يَصْعَدُ إِلَى الطَّابِقِ الثَّالِثِ، وَطَالَ انْتِظَارِي حَتَّى تَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ، وَأَخِيرًا عَادَ. كَانَ شَا حَبَّ الْوَجْهِ، يَبْدُو عَلَيْهِ الْإِغْيَاءُ، وَقَالَ بِهَدُوءٍ: «الآنَ أَعْرِفُ مَا حَدَثَ.»

سَأَلْتُ: «ماذا؟»

فَلَمْ يُجِبْ عَنْ سُؤَالِي بَلْ سَأَلَنِي: «تِلْكَ الضَّحْكَةُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي سَمِعْتَهَا اللَّيْلَةَ، هَلْ سَمِعْتَهَا مِنْ قَبْلُ؟»

أَجَبْتُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدِي سَمِعْتُهَا عِنْدَمَا كَانَتْ جَرِيسُ بُوولِ، الْمَرْأَةُ الَّتِي تُسَاعِدُ فِي أَعْمَالِ الْحَيَاكَةِ، مَوْجُودَةً هُنَا، وَتِلْكَ هِيَ ضِحْكُهَا.»

قَالَ: «نَعَمْ، كَانَ الصَّوْتُ الَّذِي سَمِعْتِهِ اللَّيْلَةَ هُوَ صَوْتُ جَرِيسِ بُوولِ. مِسْكِينَةُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ، فَهِيَ تَتَعَرَّضُ لِنُوبَاتِ جُنُونٍ، وَتَقُومُ أَثْنَاءَهَا بِأَعْمَالٍ غَرِيبَةٍ خَطِرَةٍ، وَقَدْ انْتَابَتْهَا اللَّيْلَةُ إِحْدَى هَذِهِ النُّوبَاتِ. لَقَدْ هَدَأَتْ الْآنَ، وَلَا أَرِيدُ أَنْ نُزْعِجَ أَحَدًا مِنَ الْخَدَمِ.»

قُلْتُ: «حَسَنًا يَا سَيِّدِي، لَنْ أَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ عَمَّا حَدَثَ. وَلَكِنْ أَيْنَ تَنَامُ بَقِيَّةَ اللَّيْلِ وَفِرَاشُكَ مُبْتَلًى؟»

قَالَ: «سَأَنَامُ فِي الْمَكْتَبَةِ عَلَى أَحَدِ الْمَقَاعِدِ هُنَاكَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَلِيلُ عَلَى طُلُوعِ النَّهَارِ.»

قُلْتُ: «حَسَنًا، طَابَ مَسَاوُكَ يَا سَيِّدِي.»

قَالَ وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ الْأَسَى: «جِين! لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَالْآنَ

تَتْرُكِينِي دُونَ أَنْ تَتَحَدَّثَ مَعِي.»

قُلْتُ: «الْوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ جِدًّا يَا سَيِّدِي، وَيَجِبُ أَنْ تُحَاوِلَ النَّوْمَ.»

أَمْسَكَ بِيَدِي قَائِلًا: «مُنْذُ الْوَهْلَةِ الْأُولَى الَّتِي وَقَعَ فِيهَا بَصْرِي عَلَيْكَ يَا

جِين، شَعَرْتُ بِأَنَّكَ سَتَكُونُ عَوْنًا لِي فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَشَعَرْتُ بِرَابِطَةٍ

تَرْبُطُ بَيْنَنَا، رَعَاكَ اللَّهُ يَا عَزِيزَتِي وَشُكْرًا.»

عُدْتُ إِلَى حُجْرَتِي وَلَمْ يَغْمُضْ لِي جَفْنٌ، وَشَعَرْتُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ،

فَالسَّيِّدُ رُوِّثِشْشَترَ يَحْتَاجُنِي، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُسَاعِدَهُ. وَقَدْ دَعَانِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ

بِاسْمِي الْأَوَّلِ جِين، وَبَدَأْتُ أَتَمَنَّى أَنْ يَجِيءَ الْيَوْمُ الَّذِي يُحِبُّنِي فِيهِ كَمَا

أُحِبُّهُ.

الفصل الرابع عشر

أَخْبَرَ السَّيِّدُ رُوْتَشِسْتِرَ السَّيِّدَةَ فِيرْ فَاكْسَ أَنَّ النَّارَ شَبَّتْ نَتِيجَةَ إِهْمَالِهِ، لِأَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يُطْفِئَ الشَّمْعَةَ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ.

وَدَهَشْتُ عِنْدَمَا رَأَيْتُ جَرِيسَ بُوُولَ فِي غُرْفَتِهِ وَقَدْ انْهَمَكَتْ فِي تَنْظِيفِهَا، وَبَدَتْ سَلِيمَةَ الْعَقْلِ تَمَامًا. وَشَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ قَوِيَّةٍ فِي رُؤْيَةِ السَّيِّدِ رُوْتَشِسْتِرَ، وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ أَهَابُ مُقَابَلَتَهُ. هَلْ كَانَ حُلْمًا يَا تُرَى عِنْدَمَا نَادَانِي بِاسْمِي الْأَوَّلِ جِينَ، وَعِنْدَمَا أَمْسَكَ بِيَدِي وَضَغَطَ عَلَيْهَا؟ تَمَنَّيْتُ لَوْ يَحْضُرُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ.

وَفِي أَثْنَاءِ الْغَدَاءِ أَخْبَرْتَنِي السَّيِّدَةُ فِيرْ فَاكْسَ بِمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ حَدَثَ. وَكُنْتُ مَشْغُولَةً بِالتَّفْكِيرِ فِي جَرِيسَ بُوُولَ، فَلَمْ أَصْغَ لَهَا بِإِتْبَاهٍ. وَعُدْتُ أَنَا وَأَدِيلُ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْغَدَاءِ إِلَى دُرُوسِنَا، وَلَمْ أَرَ السَّيِّدَ رُوْتَشِسْتِرَ.

بَعْدَ الظُّهْرِ، تَنَاوَلْتُ مَعَهَا الشَّايَ وَسَأَلْتَنِي: «مَاذَا بِكَ يَا جِين؟ أَمْرِيضَةٌ أَنْتِ أَمْ مُتْعَبَةٌ؟»

قُلْتُ: «لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَأَنَا لَمْ أَتَمَتَّعْ بِالصَّحَّةِ وَالرَّاحَةِ طَوَالَ حَيَاتِي كَمَا أَتَمَتَّعُ بِهِمَا الْآنَ.»

قَالَتْ: «حَسَنًا، تَعَالِي لِنَتَنَاوَلَ الشَّايَ. أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الْجَوْ الْيَوْمَ صَحْوٌ مُنَاسِبٌ لِرِحْلَةِ السَّيِّدِ رُوْتَشِسْتِرَ.»

صَحْتُ فِي دَهْشَةٍ: «رِحْلَةٌ؟! لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّهُ مُقَدِّمٌ عَلَى سَفَرٍ.»
قَالَتْ: «نَعَمْ، لَقَدْ ذَهَبَ بَعْدَ الْإِفْطَارِ مُبَاشَرَةً لِيَزُورَ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ، أُسْرَةَ إِشْتُونِ، فَهُمْ يُقِيمُونَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْ مِيلْكُوتَ، حَيْثُ يُقِيمُ كَثِيرٌ مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ.»

سَأَلْتُ: «هَلْ سَيَعُودُ اللَّيْلَةُ؟»

أَجَابَتْ: «كَلَّا، إِنَّهُ عَلَى مَا أَظُنُّ يَنْوِي أَنْ يَقْضِيَ هُنَاكَ أُسْبُوعًا عَلَى الْأَقْل؛ فَهُوَ شَخْصٌ مَحْبُوبٌ جَذَابٌ، تَحُومُ حَوْلَهُ النِّسَاءُ فِي هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ.»
وَأَخَذَتْ تُحَدِّثُنِي عَنْ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ، خَاصَّةً عَنْ وَاحِدَةٍ تُدْعَى بِلَانْشِ إِنْجْرَام، قَالَتْ: «يَعْتَقِدُ الْجَمِيعُ بِأَنَّهَا سَتَتَزَوَّجُ السَّيِّدَ رُوْتِشِسْتِر.»
صُعِقْتُ عِنْدَ سَمَاعِ ذَلِكَ الْخَبَرِ، وَلَمْ أَكُنْ قَادِرَةً عَلَى التَّحَكُّمِ فِي مَشَاعِرِي، لَكِنْ أَسْعَفَنِي الْحَظُّ فَدَخَلْتُ عَلَيْنَا أَدِيل، وَانْتَقَلَ بِنَا الْحَدِيثُ إِلَى مَوْضُوعَاتٍ أُخْرَى.

عِنْدَمَا انْفَرَدْتُ بِنَفْسِي فِي حُجْرَتِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَكَّرْتُ فِي السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتِر، وَرَأَيْتُ أَنَّنِي كُنْتُ فَتَاةً حَمَقَاءَ، فَقَدْ تَصَوَّرْتُ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُحِبَّنِي، وَلَكِنِّي تَبَيَّنْتُ الْآنَ كَمْ كُنْتُ وَاهِمَةً، فَمَا أَنَا إِلَّا مُرَبِّيَّةٌ أَتَقَاضَى أَجْرِي مِنْهُ، فَكَيْفَ يُحِبُّنِي؟!!

حَدَّثْتُ نَفْسِي آنَذَاكَ: «يَجِبُ أَنْ تَخْجَلِي مِنْ نَفْسِكَ أَيُّهَا الْحَمَقَاءُ! كَيْفَ تَجْرئينَ عَلَى التَّفْكِيرِ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ؟ فَأَنْتِ حَتَّى لَسْتِ جَمِيلَةً. وَقَدْ يَتَزَوَّجُ مِنَ الْآنِسَةِ بِلَانْشِ إِنْجْرَام وَإِذَا تَزَوَّجَهَا عَلَيْكَ أَلَّا تَشْعُرِي بِالْغَيْرَةِ.»
وَلِلَّيْلَةِ ثَانِيَةٍ نِمْتُ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا. وَلَكِنْ بَدَأْتُ حَالَتِي تَتَحَسَّنُ فِي الصَّبَاحِ. وَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَفْكَرَ فِي السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتِر فَقَطُّ عَلَى أَنَّهُ مَخْدُومِي، وَأَلَّا أَسْمَحَ لِنَفْسِي بَعْدَ الْيَوْمِ بِالْأَمَلِ فِي أَنَّهُ سَيُحِبُّنِي.

الفصل الخامس عشر

انْقَضَى أُسْبُوعٌ عَلَى غِيَابِ السَّيِّدِ رُوْثِشْتَر لَمْ نَسْمَعْ فِيهِ عَنْهُ خَبْرًا، وَقَالَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ إِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ قَدْ تَوَجَّهَ رَاسًا كَعَادَتِهِ مِنْ مِيلْكُوتَ إِلَى لَنْدَنَ.

وَحَزِنْتُ لِسَمَاعِي هَذَا، فَقَدْ تَمَنَيْتُ فِي نَفْسِي أَنْ يَعُودَ إِلَى ثُورْنْفِيلْدَ. وَرَجَعْتُ أَقْطَعُ الْعَهْدَ تَلُوَ الْعَهْدِ بِأَنْ أَنْسَاهُ وَأَرْجِعَ عَنْ حُبِّي لَهُ. انْقَضَى أُسْبُوعٌ آخَرُ، ثُمَّ وَصَلْتُ مِنْهُ رِسَالَةً إِلَى السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْسُ قَالَتْ بَعْدَ أَنْ قَرَأْتُهَا: «سَيَمْتَلِيْ هَذَا الْبَيْتُ بِالزُّوَارِ قَرِيْبًا، وَسَنْظَلُ مَشْغُولِينَ لِعِدَّةٍ أَسَابِيْعَ.»

سَأَلْتُهَا: «لِمَاذَا؟ هَلْ سَيَعُودُ السَّيِّدُ رُوْثِشْتَر؟» قَالَتْ: «نَعَمْ، سَيَعُودُ يَوْمَ الْخَمِيْسِ الْمُقْبِلِ وَمَعَهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَسَيَشْغَلُونَ كُلَّ وَقْتِنَا.»

كَانَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ عَلَى حَقٍّ، فَقَدْ دَبَّ النَّشَاطُ فِي حَيَاتِنَا، وَهَبَّ الْكُلُّ يَعْمَلُ اسْتِعْدَادًا لِهَذِهِ الزِّيَارَةِ. حَتَّى أَنَا، فَكُنْتُ أَقُومُ بِالمُسَاعَدَةِ فِي الطَّهْيِ بَدَلًا مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّدْرِيسِ.

حَلَّ يَوْمَ الْخَمِيْسِ وَكَانَتْ أَدِيلُ تَنْتَظِرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِشَوْقٍ وَلَهْفَةٍ لِتُقَابِلَ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ مِنَ عِلِيَةِ الْقَوْمِ.

وَصَلَ الْقَوْمُ يَتَقَدَّمُهُمْ أَرْبَعَةُ فُرْسَانٍ يَمْتَطُونَ جِيَادَهُمْ. وَكَانَ السَّيِّدُ

رُوْثِشْتَر أَحَدَ الذِّينَ يَرْكَبُونَ فِي الْمُقَدَّمَةِ، وَبِجَانِبِهِ شَابَّةٌ آيَةٌ فِي الْجَمَالِ
وَالْأَنَاقَةِ قَالَتْ عَنْهَا السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ عِنْدَمَا رَأَتْهَا: «تِلْكَ هِيَ الْآنِسَةُ
إِنْجَرَام، لَعَمْرِي إِنَّهَا تَزْدَادُ جَمَالًا وَبَهَاءً كُلَّمَا رَأَيْتُهَا.»

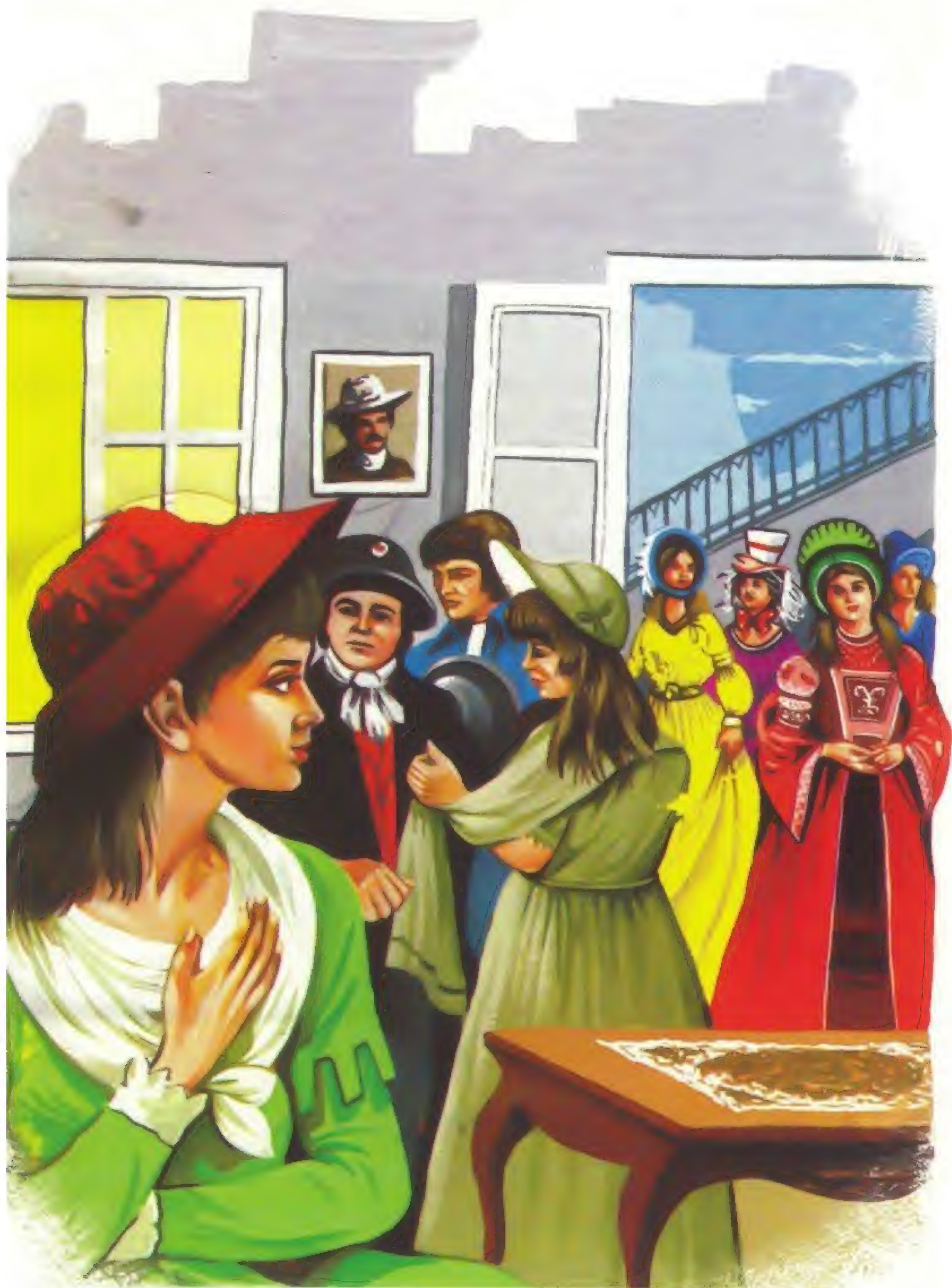
وَصَلَ بَاقِي الزُّوَّارِ فِي مَرْكَبَتَيْنِ، وَامْتَلَأَ الْبَيْتُ بِالضُّيُوفِ.

بَقِيَتْ مَعَ أَدِيلَ فِي الطَّابِقِ الثَّانِي. لَمْ نَرَ السَّيِّدَ رُوْثِشْتَر، وَلَمْ نُقَابِلِ
الزُّوَّارَ، وَسَمِعْنَا أَصْوَاتًا كَثِيرَةً مُخْتَلِطَةً. وَبَعْدَ الْعِشَاءِ سَمِعْنَا عَزْفًا عَلَى
الْبَيَانُو وَصَوْتَيْنِ يُنْشِدَانِ، كَانَ أَحَدُهُمَا صَوْتُ السَّيِّدِ رُوْثِشْتَر.

كَانَ الْجَوْ صَحْوًا دَافِئًا فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَقَضَى الضُّيُوفُ يَوْمَهُمْ خَارِجَ
الْبَيْتِ، وَلَمْ يَعُودُوا إِلَّا فِي الْمَسَاءِ. بَعْدَ الْعِشَاءِ أَرْسَلَ السَّيِّدُ رُوْثِشْتَر
يَدْعُونِي أَنَا وَأَدِيلَ إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، وَقَالَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ إِنَّهُ
يَدْعُونِي أَنَا بِصِفَةِ خَاصَّةٍ. وَذَهَبْتُ مُتَوَجِّسَةً مِمَّا سَوْفَ أَلَاقِيهِ أَنَا الْمُرَبِّيَّةُ
الْمُسْكِينَةُ وَسَطَ تِلْكَ الْجُمُوعِ مِنْ أَكَابِرِ الْقَوْمِ؛ أَمَّا أَدِيلُ فَكَادَتْ تَطِيرُ
فَرَحًا.

دَخَلْنَا الْحُجْرَةَ وَاتَّخَذْتُ لِي رُكْنًا انْطَوَيْتُ فِيهِ عَلَى أَمَلٍ أَنْ لَا يَرَانِي
أَحَدٌ. وَدَخَلْتُ عَلَيْنَا ثَمَانِي سَيِّدَاتٍ بَيْنَهُنَّ الْآنِسَةُ بِلَانْشُ إِنْجَرَام، وَكَانَتْ
أَجْمَلَهُنَّ. كَانَتْ مُنْتَصِبَةً الْقَامَةِ، ذَاتَ شَعْرٍ أَسْوَدَ وَعَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ. وَلَمْ تَكُنْ
تَأْبُهُ بِمَنْ حَوْلَهَا، بَلْ كَانَ كُلُّ اهْتِمَامِهَا مُنْصَبًّا عَلَى إِظْهَارِ جَمَالِهَا وَشِدَّةِ
ذِكَائِهَا.

لِحُسْنِ الْحِظِّ لَمْ يُلَاحِظْنِي أَحَدٌ مِنْهُنَّ، أَمَّا أَدِيلُ فَانْدَمَجَتْ فِي الْحَدِيثِ



مَعَهُنَّ وَأَعْجِبْنَ بِهَا جَمِيعًا، وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا عَلَامَاتُ الْبُشْرِ وَالسَّعَادَةِ.
أَخِيرًا قُدِّمَتِ الْقَهْوَةُ.

وَحَضَرَ الرِّجَالُ، وَلَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ رُوْثِشْتِرَ بَيْنَهُمْ، بَلْ حَضَرَ بَعْدَهُمْ
بِدَقَائِقَ وَجَلَسَ يَتَحَدَّثُ مَعَ بَعْضِ السَّيِّدَاتِ.

لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيَّ، وَكُنْتُ أَسْتَرِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهِ لِأُقَارِنَ بَيْنَ مُقَابَلَتِنَا الْيَوْمَ
وَمُقَابَلَتِنَا آخِرَ مَرَّةٍ. كَمْ كَانَ الْفَرْقُ عَظِيمًا، وَكَمْ كَانَ مَا شَعَرْتُ بِهِ مِنَ الْأَلَمِ
وَالْأَسَى خَاصَّةً وَقَدْ أَذْرَكْتُ أَنِّي مَا زِلْتُ أُحِبُّهُ وَسَأَظِلُّ أُحِبُّهُ مَهْمَا كَانَتْ
الْفَوَارِقُ بَيْنَنَا.

كَانَتْ الْآنِسَةُ أَنْجَرَامَ حَرِيصَةً عَلَى إِرْضَاءِ السَّيِّدِ رُوْثِشْتِرَ وَتَنْفِيذِ
رَغْبَاتِهِ، وَبَدَأَ سَعِيدًا بِذَلِكَ، إِلَّا أَنِّي شَعَرْتُ بِأَنَّهُمَا يَلْعَبَانِ لُعْبَةً مَا. وَشَعَرْتُ
بِأَنَّ الْآنِسَةَ أَنْجَرَامَ لَمْ تَكُنْ جَادَّةً فِي حُبِّهَا، بَلْ كَانَتْ تَلْهُو بِعَوَاطِفِ السَّيِّدِ
رُوْثِشْتِرَ وَتُوْدِّي دَوْرَهَا بِإِتْقَانٍ.

قَامَتْ تَعْرِفُ عَلَى الْبَيَانُو وَصَاحَبَهَا رُوْثِشْتِرَ وَانْتَهَزَتْ الْفُرْصَةَ
وَتَسَلَّلْتُ خَارِجَةً عِنْدَمَا فَرَغَا مِنْ غِنَائِهِمَا. وَصَعِدْتُ إِلَى غُرْفَتِي، وَبَيْنَمَا أَنَا
أَصْعَدُ سَمِعْتُ وَقَعَ خُطُوَاتِ خَلْفِي فَالْتَفَتْتُ فَإِذَا بِالسَّيِّدِ رُوْثِشْتِرَ يَتْبَعُنِي،
وَسَأَلَنِي بِرِقَّةٍ: «كَيْفَ حَالُكَ يَا جِين؟»

قُلْتُ: «بِخَيْرٍ! أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي.»

سَأَلَنِي: «لِمَاذَا لَمْ تُكَلِّمْنِي فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ؟»

أَجَبْتُ: «لِإِنْشِغَالِكَ بِأَصْدِقَائِكَ.»

فَرَدَّ: «هَلْ حَدَثَ مَا يُكَدِّرُكَ أَثْنَاءَ غِيَابِي؟ لَقَدْ بَدَوْتُ حَزِينَةً.»
قُلْتُ: «لَا يَا سَيِّدِي، أَنَا حَقًّا بِخَيْرٍ، قَدْ أَكُونُ مُتَعَبَةً بَعْضَ الشَّيْءِ وَهَذَا
كُلُّ مَا هُنَاكَ.»

قَالَ: «لَا، لَا أَظُنُّكَ تَصْدُقِينِي الْقَوْلَ. أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ مِنْكَ كُلَّ شَيْءٍ،
وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ الْحَدِيثَ اللَّيْلَةَ، فَلْنُرْجِئْهُ لِيَوْمٍ آخَرَ. فَقَطُّ لِي رَجَاءٌ وَاحِدٌ
عِنْدَكَ يَا جِين: تَعَالَيْ كُلَّ مَسَاءٍ إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ مَا دَامَ عِنْدَنَا زَائِرُونَ.
وَالآنَ يَجِبُ أَنْ تَذْهَبَ أَدِيلَ لِلْفِرَاشِ، فَابْعَثِي صُوفِي لَتَأْخُذَهَا.» ثُمَّ قَالَ:
«طَابَ مَسَاؤُكَ يَا -» وَتَوَقَّفَ فَجَاءَهُ عَنِ الْكَلَامِ وَانْصَرَفَ.

الفصل السادس عشر

لَمْ تَحِنْ فُرْصَةٌ لِلتَّحَدُّثِ مَعَ السَّيِّدِ رُوْتَشِسْتَرٍ خِلَالِ الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ، وَكُنْتُ أَذْهَبُ كُلَّ مَسَاءٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، وَأَنْزَوِي فِي رُكْنِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَيَّ أَحَدٌ. وَتَعَاقَبَتِ الْأَيَّامُ وَالْأَسَابِيْعُ وَالْكُلُّ سَعِيدٌ مُبْتَهَجٌ، إِلَّا أَنَا! خَرَجَ السَّيِّدُ رُوْتَشِسْتَرُ ذَاتَ يَوْمٍ لِقَضَاءِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ، وَحَلَّ الْمَسَاءُ دُونَ أَنْ يَعُودَ، وَبَدَتْ عَلَى الْإِنْسَةِ أَنْجْرَامُ عِلَامَاتِ الْقَلْقِ وَالتَّوَتُّرِ لِعِغَابِهِ، وَوَقَفْتُ فِي النَّافِذَةِ تَنْتَظِرُهُ. وَفَجْأَةً وَقَفْتُ مَرْكَبَةً بِالْبَابِ وَنَزَلَ مِنْهَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، قَالَ عِنْدَمَا أَدْخَلَهُ الْخَادِمُ: «أَنَا آسِفٌ أَنْ أَجِدَ صَدِيقِي السَّيِّدَ رُوْتَشِسْتَرَ مُتَغَيِّبًا، وَلَكِنْ أَرْجُو أَنْ تَسْمَحُوا لِي بِانْتِظَارِهِ، فَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ سَفَرٍ طَوِيلٍ شاقٍّ.»

كَانَ الرَّجُلُ طَوِيلَ الْقَامَةِ، وَسِيمَ الطَّلَعَةِ، مُؤَدَّبَ الْحَدِيثِ، يُقَارِبُ عُمُرَهُ عُمَرَ السَّيِّدِ رُوْتَشِسْتَرِ، وَقَدْ أَخْبَرْنَا أَنَّهُ يَعِيشُ فِي جُزْرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ، حَيْثُ التَّقَى بِالسَّيِّدِ رُوْتَشِسْتَرِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ. وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ السَّيِّدَ رُوْتَشِسْتَرِ ذَهَبَ فِي رِحَالَتِهِ إِلَى خَارِجِ الْقَارَةِ الْأَوْرُبِيَّةِ. كَذَلِكَ أَخْبَرْنَا بِأَنَّهُ يُدْعَى مَيْسُونُ، وَشَعَرْتُ نَحْوَهُ بِعَدَمِ الْإِزْتِيَّاحِ دُونَ أَيِّ سَبَبٍ.

بَيْنَمَا الْكُلُّ يَتَحَدَّثُونَ، دَخَلَتْ إِحْدَى الْخَادِمَاتِ وَتَوَجَّهَتْ إِلَى السَّيِّدِ إِشْتُونُ - أَحَدِ الضُّيُوفِ - وَأَسَرَّتْ إِلَيْهِ شَيْئًا وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِصْرِفِيهَا

حالاً.» وقال آخر: «لا، لا يا إشتون! دعنا كي نلهو ونتسلى. اسمعوا جميعاً! بالبَابِ عِرافةٌ، فهل تريدون أن تدخل وتقرأ لكم طالعكم؟» قالوا بصوت واحد: «نعم، نعم! جميعنا متشوقون لمعرفة ما تحبُّه لنا الأقدار.»

قالت الخادمة: «إنها تقرأ طالع الشابات غير المتزوجات فقط، وتشترط أن تراهنَّ كُلاً على حدة في حجرة المكتبة.»

كانت بلانش إنجرام أول من تقدَّم حتَّى تبدو أشجع الموجودات وأكثرهنَّ إقداماً. وعادت بعد خمس عشرة دقيقة، وبخلاف عاداتها وحُبها للظهور عادت صامتة، ولم تردَّ على ما انْهالَ عليها من الأسئلة بخصوص ما دارَ بينها وبين العِرافة.

ذهبت الأنسات الثلاث الأخريات معاً، فقد كنَّ خائفات. ولم تطُل إقامتهنَّ مع العِرافة، وعُدنَّ يضحكن. وقالت إحداهنَّ: «إنها حقاً مذهشة، لقد أخبرتنا بكل شيء عن حياتنا وعائلاتنا، وعمَّن نحبُّ ومَن نكره، بالاختصار عرفت كل شيء.»

وبينما هنَّ يتحدثنَّ، جاءت إليَّ الخادمة وقالت: «من فضلك يا آنسة إير، تقول العِرافة إنها تريدُ مُقابلةَ الأنسة الباقية في الحجرة وأظنُّها تعنيك، فهلاً أتيت معي؟»

كنتُ متشوقةً لمُقابلةِ هذه المرأة العجيبة، وقُمتُ للتو.

الفصل السابع عشر

عِنْدَمَا دَخَلْتُ حُجْرَةَ الْمَكْتَبَةِ وَجَدْتُهَا سَاكِنةً مُظْلِمَةً لَا يُنِيرُهَا سِوَى
الضَّوِّءِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الْمِدْفَاةِ. وَكَانَتْ الْعِرَافَةُ الْعَجُوزُ تَجْلِسُ بِالقُرْبِ
مِنَ الْمِدْفَاةِ، تَرْتَدِي مِعْطَفًا أَحْمَرَ، وَتَضَعُ فَوْقَ رَأْسِهَا قُبْعَةً كَبِيرَةً حَجَبَتْ
مَلَامِحَ وَجْهِهَا.

تَطَلَّعْتُ إِلَيَّ قَائِلَةً: «تُرِيدِينَ أَنْ أَقْرَأَ طَالِعَكِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قُلْتُ: «أَكُونُ شَاكِرَةً لَوْ تَكَرَّمْتِ بِذَلِكَ.»

سَأَلْتُ: «أَلَا تَخَافِينَ؟»

أَجَبْتُ: «كَلَّا، لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدْعُو لِلْخَوْفِ.»

فَضَحِكْتُ ضِحْكَةً هَادِئَةً وَقَالَتْ: «أَنْتِ مُتَحَجِّرَةُ الْعَوَاطِفِ. مَرِيضَةٌ

وَعَنِيدَةٌ.»

سَأَلْتُ: «مَاذَا تَعْنِينَ بِقَوْلِكَ هَذَا؟»

أَجَابَتْ: «أَنْتِ تَشْعُرِينَ بِالْوَحْدَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَمْنَعِينَ نَفْسَكَ عَنِ

الِاسْتِرْسَالِ فِي أَنبَلِ الْعَوَاطِفِ وَأَسْمَاهَا، لِذَلِكَ أَنْتِ مَرِيضَةٌ، وَسُلُوكُكِ

هَذَا هُوَ الْغَبَاءُ بِعَيْنِهِ.»

قُلْتُ: «وَلَكِنَّ هَذَا وَصْفٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النِّسَاءِ، خَاصَّةً

الْعَامِلَاتِ مِنْهُنَّ، وَاللَّاتِي يَتَطَلَّبُ عَمَلُهُنَّ الْحَيَاةَ وَسَطَ أُسْرَةٍ كَبِيرَةٍ

بَعِيدًا عَنْ أَسْرِهِنَّ وَبُيُوتِهِنَّ.»

قَالَتْ: «لَا! يَنْدُرُ وُجُودُ مَثِيلَاتِكَ، فَالسَّعَادَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ جِدًّا، وَلَكِنَّكَ تُعْرِضِينَ بَوَجْهِكَ عَنْهَا، وَلَا تَمُدِّينَ يَدَكَ إِلَيْهَا.»
قُلْتُ: «أَرْجُوكِ أَنْ تَوْضِّحِي. إِلَيْكَ بِكَفِّي لِتُطَالِعِي لِي مُسْتَقْبَلِي. أَلَيْسَ هَذَا عَادَةً مَا تَفْعَلُونَ؟»

قَالَتْ: «نَعَمْ، وَلَكِنِّي أَفْضَلُ أَنْ أُطَالِعَ وَجْهَكَ. اقْتَرِبِي مِنِّي حَتَّى أَرَى وَجْهَكَ جَلِيًّا عَلَى ضَوْءِ الْمَدْفَأَةِ.» وَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا.
قَالَتْ: «تُرَى فِيمَ تُفَكِّرِينَ وَأَنْتِ جَالِسَةٌ وَسَطَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؟ هَلْ تَشْعُرِينَ بِالتَّعَاسَةِ، أَمْ تَأْمُلِينَ أَنْ تُصْبِحِي يَوْمًا مِثْلَهُمْ؟»
أَجَبْتُ: «لَسْتُ تَعِيسَةً، وَلَيْسَ لِي أَمَلٌ إِلَّا أَنْ أَصْبِحَ يَوْمًا مَا صَاحِبَةُ مَدْرَسَةٍ خَاصَّةٍ بِي.»

قَالَتْ: «لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ أَمَلُكَ الْوَحِيدَ. أَخْبِرِينِي، عِنْدَمَا تَكُونِينَ فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ، هَلْ تُوجِّهِينَ كُلَّ اهْتِمَامِكَ إِلَى مُرَاقَبَةِ سُلُوكِ وَتَحَرُّكَاتِ شَخْصَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ؟»
أَجَبْتُ: «لَا، لَا أَظُنُّ. فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْجَمِيعِ.»

قَالَتْ: «وَلَكِنَّ هُنَاكَ شَخْصَيْنِ يُرَاقِبُهُمَا الْجَمِيعُ حَالِيًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»
قُلْتُ: «هَذَا صَحِيحٌ.»

سَأَلَتْ: «وَمَا رَأَيْكَ أَنْتِ فِي هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ؟ هَلْ هُنَاكَ حُبٌّ مُتَبَادِلٌ
بَيْنَهُمَا؟»

كَانَتْ تَنْظُرُ فِي عَيْنَيَّ وَهِيَ تَسْأَلُنِي كَمَنْ يُرِيدُ قِرَاءَةَ أَفْكَارِي. فَصَمْتُ
بُرْهَةً، وَعِنْدَمَا كَرَّرَتِ السُّؤَالَ أَجَبْتُ: «كَلَّا، لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمَا يَتَبَادَلَانِ
الْحُبَّ.»

قَالَتْ: «وَمَعَ ذَلِكَ سَيَتَزَوَّجُ هَذَانِ الشَّخْصَانِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»
قُلْتُ: «بَلَى، الْجَمِيعُ يَقُولُونَ إِنَّ السَّيِّدَ رُوْتِشِسْتِرَ سَيَتَزَوَّجُ الْآنِسَةَ
إِنْجَرَامَ. وَلَكِنِّي لَمْ أَخْضُرْ هُنَا لِتَقْرَأِي لِي طَالِعَهُمَا.»
قَالَتْ: «إِنِّي لَا أَرَى مُسْتَقْبَلَكَ أَمَامِي وَاضِحًا. اقْتَرِبِي مِنِّي أَكْثَرَ.»



قَالَتْ بَعْدَ أَنْ اقْتَرَبْتُ: «الْعَيْنَانِ بَرَّاقَتَانِ وَتَجِيشَانِ بِالمَشَاعِرِ، الفَمُّ جَادٌّ وَلَكِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِبْتِسَامِ. إِنَّهُ وَجْهُ شَخْصٍ قَوِيٍّ شُجَاعٍ يَتَّبِعُ الْحَقَّ وَلَوْ ضِدَّ نَفْسِهِ، يُمَكِّنُهُ أَنْ يُخْفِيَ عَوَاطِفَهُ عِنْدَ اللُّزُومِ.»
وَاسْتَمَرَّتْ تَتَحَدَّثُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ إِلَى أَنْ صَرَخَتْ قَائِلَةً: «انْهَضِي يَا جِين لَقَدْ انْتَهَتْ لُعْبَتِي.»

وَتَغَيَّرَتْ نَبْرَاتُ صَوْتِهَا، وَعَرَفْتُ الصَّوْتَ وَتَخَيَّلْتُ أَنِّي أَحْلُمُ. وَلَكِنَّ
الْعَرَّافَةَ خَلَعَتْ مِعْطَفَهَا وَقَبَّعَتْهَا وَرَأَيْتُ أَمَامِي السَّيِّدَ رُوثِيسْتِرَ!
أَظْهَرْتُ دَهْشَتِي قَائِلَةً: «مَا أَغْرَبَهَا لُعْبَةً يَا سَيِّدِي! لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ؟»
قَالَ: «هَلْ أَجَدْتُ اللَّعْبَةَ؟ وَهَلْ قُمْتُ بِدَوْرِ الْعَرَّافَةِ بِإِثْقَانٍ؟»



قُلْتُ: «نَعَمْ لَقَدْ أَتَقَتُّهُ حَقَّ الْإِثْقَانِ، وَتَعْتَقِدُ بَاقِيَ الْإِنْسَانِ بِأَنَّكَ حَقًّا عَرَّافَةٌ وَعَرَّافَةٌ مَاهِرَةٌ. وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ، لِمَاذَا لَعِبْتَ دَوْرَكَ هَذَا مَعِي؟ مَا الَّذِي أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَهُ؟ لَقَدْ بَحْتُ بِأَسْرَارٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَهَا؟» وَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْكَلَامِ، تُرَى هَلِ اكْتَشَفَ سِرَّ حُبِّي لَهُ؟

قَالَ: «لَمْ تَقُولِي لِي شَيْئًا جَدِيدًا لَمْ أَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ يَا جِين. أَرْجوكِ أَلَّا تَغْضَبِي مِنِّي، وَتَعَالِي حَدِّثِي عَمَّا يَجْرِي فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ أَثْنَاءَ غِيَابِي.»

قُلْتُ: «أَظُنُّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْكَ.» وَضَحِكْتُ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ الزَّائِرَ الْغَرِيبَ السَّيِّدَ مَيْسُونَ، فَسَأَلْتُ السَّيِّدَ رُوْتِشِسْتِرَ: «هَلْ عَلِمْتَ بِحُضُورِ زَائِرٍ غَرِيبٍ جَدِيدٍ؟»

سَأَلَ: «مَنْ يَكُونُ؟»

أَجَبْتُ: «إِنَّ اسْمَهُ مَيْسُونَ، وَقَدْ أَتَى مِنْ جُزُرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ؟»

زَالَتِ الْإِبْتِسَامَةُ عَنْ وَجْهِ السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتِرَ، وَأَمْسَكَ بِيَدِي بِقُوَّةٍ وَزَفَرَ قَائِلًا: «مَيْسُونَ! جُزُرُ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ! آه كَلَّا، كَلَّا!»

سَأَلْتُهُ: «هَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ يَا سَيِّدِي؟» فَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ.

أَجَابَ: «جِين! آه يَا جِين! لَيْسْنَا كُنَّا وَحْدَنَا، أَنَا وَأَنْتِ فَوْقَ جَزِيرَةِ قَاصِيَةِ بَعِيدًا عَنِ الْمَتَاعِبِ وَالْأَخْطَارِ. يَا إِلَهِي، مَاذَا أَفْعَلُ الْآنَ؟»

قُلْتُ مُحَاوَلَةً تَخْفِيفَ اضْطِرَابِهِ: «هَلْ يُمَكِّنُنِي أَنْ أُسَاعِدَكَ؟ إِنَّنِي

لَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْ بَذْلِ حَيَاتِي فِي سَبِيلِ إِسْعَادِكَ.»
قَالَ: «لَا يَا عَزِيزَتِي، لَا يُمَكِّنُكَ عَمَلُ أَيِّ شَيْءٍ وَلَكِنِّي أَعِدُّكَ بِأَنِّي
سَأَلْجَأُ إِلَيْكَ إِذَا مَا احْتَجْتُ إِلَى مُسَاعَدَتِكَ. أَمَّا الْآنَ فَاذْهَبِي، وَأَخْبِرِي
السَّيِّدَ مَيْسُونَ بِأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَرَاهُ وَأَحْضِرِيهِ إِلَيَّ هُنَا، مِنْ فَضْلِكَ.»
قُلْتُ: «سَمْعًا وَطَاعَةً.»

وَقَبْلَ أَنْ أَنْصَرِفَ قَالَ: «جِينِ، لَوْ أَجْمَعَ الْكُلُّ عَلَى كُرْهِي وَعَدَائِي،
وَرَفَضُوا الْحَدِيثَ مَعِي، فَهَلْ تَكْرَهِينَنِي أَنْتِ أَيْضًا وَلَا تُحَدِّثِينَنِي؟»
عَجِبْتُ لِهَذَا السُّؤَالِ الْغَرِيبِ وَقُلْتُ: «أَنْتِ تَعْلَمُ أَنِّي لَنْ أَكْرَهَكَ أَبَدًا،
بَلْ..» وَكِدْتُ أَبُوحُ لَهُ بِحُبِّي وَلَكِنِّي أَسْرَعْتُ وَخَرَجْتُ، وَبَلَّغْتُ الرِّسَالَةَ
لِلْسَّيِّدِ مَيْسُونَ، ثُمَّ صَحَبْتُهُ إِلَى حُجْرَةِ الْمَكْتَبَةِ، وَتَرَكْتُهُ وَصَعِدْتُ إِلَى
حُجْرَتِي لِأَنَامَ، وَأَحْلُمَ.

لَمْ أُنَمْ، بَلْ بَقِيتُ فِي فِرَاشِي بِضَعِ سَاعَاتٍ إِلَى أَنْ سَمِعْتُ وَقَعَ أَقْدَامِهِمَا
وَهُمَا يَصْعَدَانِ وَصَوْتَ السَّيِّدِ رُوْتِشْسْتِر يَقُولُ: «هَذِهِ هِيَ غُرْفَتُكَ يَا
مَيْسُونَ، أَتَمَنَّى لَكَ نَوْمًا هَنِيئًا هَادِئًا.»

كَانَ صَوْتُهُ يَنْمُ عَنِ الرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَشَعَرْتُ أَنَّ هُمُومَهُ زَالَتْ.
وَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَاسْتَسَلَمْتُ لِلنَّوْمِ.

الفصل الثامن عشر

إِنْتَابَنِي الْأَرْقُ، وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَرْخَةً مُرَوِّعَةً تَرَدَّدَ صَدَاها فِي جَمِيعِ
أَنْحَاءِ ثُورْنِفِيلْد، ثُمَّ تَبِعَتْها صَرْخَةٌ ثَانِيَةٌ وَصَوْتُ أَتَى مِنَ الطَّابِقِ الثَّالِثِ
يُنَادِي بِلَهْفَةٍ وَذُعْرٍ: «النَّجْدَةُ! النَّجْدَةُ! أَنْقِذْنِي. يَا رُوثْشِستِر.» وَسَمِعْتُ
بَعْدَ ذَلِكَ صَرِيرَ بَابٍ يُفْتَحُ، وَوَقَعَ أَقْدَامُ تَهْرُولٍ. وَأَسْرَعْتُ بِإِرْتِدَاءِ مَلَابِسِي
وَخَرَجْتُ مُسْرِعَةً. فَوَجَدْتُ الْجَمِيعَ قَدْ اسْتَيْقَظُوا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَجْرِي
هُنَا وَهُنَاكَ، وَالْبَعْضُ يَبْكِي، وَالْبَعْضُ يَتَسَاءَلُ عَمَّا حَدَثَ: «هَلْ شَبَّ
حَرِيقٌ؟ هَلْ أُصِيبَ أَحَدٌ بِمَكْرُوهٍ؟ أَيْنَ نَذْهَبُ؟ أَيْنَ السَّيِّدُ رُوثْشِستِر؟»



هنا ظهر السيّد روثشستر وسطحهم مُهدّئًا. قال: «لا تنزعجوا يا أصدقائي!
فليس هناك ما يدعو إلى الخوف. كل ما في الأمر أنّ إحدى الخادِمات
رأت كابوسًا مُزعجًا. تخيلت أنّها رأت شبحًا، فصرخت مدعورة. أرجو
أن تعودوا إلى فراشكم مطمئنّين، وأنا آسف لهذا الإزعاج.»
انصرف الجميع، وذهب كل إلى غرفته، ولم أنّم وانتظرتُ لأرى ما
إذا كان السيّد روثشستر في حاجةٍ إلى مُساعدتي، أم لا. وبعد مُضيّ نحو
نصف ساعة، سمعتُ طرّقًا خفيفًا على بابي، وصوت السيّد روثشستر
يسأل: «أُمستيقظة أنت يا جين؟»



أَجَبْتُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدِي، هَلْ أَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ؟»
قَالَ: «نَعَمْ، هَلُمِّي مَعِي. لَا تُحَدِّثِي أَيَّ صَوْتٍ، وَأَحْضِرِي مَعَكَ قَلِيلًا
مِنَ الْمَاءِ وَأَرْبِطَةً.»

أَخَذْتُ الْمَاءَ وَالْأَرْبِطَةَ وَتَبِعْتُهُ إِلَى الطَّابَقِ الثَّالِثِ.
قَالَ: «آمُلُ أَنْ لَا تَكُونِي يَا جِينِ مِمَّنْ يَفْزَعُونَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الدَّمِ، فَسَوْفَ
تُشَاهِدِينَ مَنَظَرًا فَظِيعًا.» وَأَمْسَكَ بِيَدِي، وَاقْتَادَنِي إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ.
رَأَيْتُ السَّيِّدَ مَيْسُونَ مُمَدِّدًا عَلَى الْفِرَاشِ، عَيْنَاهُ مُغْمَضَتَانِ وَلَوْنُهُ شَاحِبٌ
شُحُوبَ الْمَوْتِ، عَلَى حِينِ غَطَّتِ الدَّمَاءُ إِحْدَى ذِرَاعَيْهِ.

قَالَ السَّيِّدُ رُوثِشْتِر: «أَمْسِكِي لِي الشَّمْعَةَ يَا جِينِ.» ثُمَّ بَدَأَ يَنْظِفُ ذِرَاعَ
مَيْسُونَ وَوَجْهَهُ. وَفَتَحَ الرَّجُلُ الْمِسْكِينَ عَيْنَيْهِ وَسَأَلَ فِي حَسْرَةٍ: «هَلْ
سَأَمُوتُ؟»

أَجَابَ السَّيِّدُ رُوثِشْتِر: «لَا، لَا يَا مَيْسُونَ. إِنْ إصَابَتْكَ لَيْسَتْ خَطِيرَةٌ.
سَأَذْهَبُ لِاسْتِدْعَاءِ الطَّبِيبِ.» ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قَائِلًا: «سَأَتْرُكُكِ هُنَا بُرْهَةً يَا
جِينِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ؛ لَا تُحَدِّثِيهِ. وَأَنْتِ أَيْضًا يَا مَيْسُونَ، الْزِمِ الصَّمْتَ
وَالْهُدُوءَ.» ثُمَّ تَرَكَنَا وَانْصَرَفَ.

تَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ، وَوَجَدْتُ صُعُوبَةً كَبِيرَةً فِي أَنْ أَبْقَى حَيْثُ أَنَا،
فَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ جَرِيسِ بُوُولِ الْغَرِيبِ فِي الْحُجْرَةِ الْمُجَاوِرَةِ،
وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْنَا فِي آيَةٍ لَحْظَةٍ. وَرُحْتُ أَفْكُرُ فِيمَا حَدَثَ تِلْكَ
الَّيْلَةَ، وَبَدَتِ الْحَيَاةُ فِي ثُورِنْفِيلْدَ لُغْزًا مُعَقَّدًا. وَلَمْ أَجِدْ سَبَبًا يَمْنَعُنَا مِنْ

الْحَدِيثِ أَنَا وَالسَّيِّدَ مَيْسُون، وَلَكِنِّي بَقِيتُ صَامِتَةً، وَأَطَعْتُ أَمْرَ السَّيِّدِ
رُوثِشْتَر.

أَخِيرًا، طَلَعَ النَّهَارُ، وَسَمِعْتُ نُبَاحَ الْكَلْبِ بَيُّوتٍ يَأْتِي مِنْ بَعِيدٍ، ثُمَّ
حَضَرَ السَّيِّدُ رُوثِشْتَر وَبِرْفَقَتِهِ طَبِيبُ الْقَرْيَةِ.

قَالَ رُوثِشْتَر: «أَسْرِعْ يَا دُكْتور؛ أَظُنُّ أَنَّ حَالَةَ الْمَرِيضِ تَسْمَحُ بِنَقْلِهِ مِنْ
هُنَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ.»

قَالَ الطَّبِيبُ: «بَلَى، فَالْإِصَابَةُ غَيْرُ خَطِيرَةٍ، وَسَيَلْتِمُ الْجُرْحُ بِسُرْعَةٍ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ.»

قَالَ مَيْسُون: «لَقَدْ كَادَتْ أَنْ تَقْضِيَ عَلَيَّ.»
وَرَدَّ عَلَيْهِ الطَّبِيبُ قَائِلًا: «هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا أَخِي، إِنَّ كُلَّ مَا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ
ضَعْفٍ نَتَجَ عَنْ كَمِّيَةِ الدَّمِ الَّتِي نَزَفْتَهَا.»

قَالَ مَيْسُون: «لَقَدْ قَضَمْتُ ذِرَاعِي كَمَا لَوْ كَانَتْ وَخْشًا كَاسِرًا، وَشَرِبْتُ
مِنْ دَمِي. يَا إِلَهِي، كَمْ كَانَ مَنْظَرُهَا مُرَوِّعًا! لَقَدْ خَدَعَنِي فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ
هُدُوؤُهَا.»

قَالَ رُوثِشْتَر: «لَقَدْ حَذَرْتُكَ، وَأَخْبَرْتُكَ عَنْ مَدَى خُطُورَتِهَا، وَلَكِنَّكَ
لَمْ تُصَدِّقْنِي.»

قَالَ مَيْسُون: «ظَنَنْتُ أَنَّ فِي مَقْدُورِي مُسَاعَدَتَكَ.»
رَدَّ رُوثِشْتَر: «ظَنَنْتَ؟! مَا أَغْبَاكَ. بِرَبِّكَ يَا دُكْتور، أَسْرِعْ قَبْلَ

أَنْ يَسْتَيْقِظَ الْخَدَمُ. وَأَنْتِ يَا جِين، أَرْجوكِ أَنْ تَهْبِطِي السُّلَّم قَبْلَنَا، وَإِذَا قَابَلْتِ أَحَدًا، أَسْعُلي لِتُنْذِرِينَا.»

وَعِنْدَمَا بَلَغَتِ السَّاعَةُ الْخَامِسَةَ وَخَمْسًا وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً، كَانَ الطَّبِيبُ وَالْجَرِيحُ قَدْ رَحَلَا. وَكَانَ آخِرُ مَا قَالَهُ مِيسُونُ لِلْسَيِّدِ رُوثِشِستِر: «حَافِظْ عَلَيْهَا، وَكُنْ رَحِيمًا بِهَا.» تُرَى، مَنْ كَانَ يَعْنِي؟ وَأُضِيفَ لُغْزٌ جَدِيدٌ إِلَى الْغَازِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَحَوَادِثُهَا الَّتِي حَيَّرْتَنِي.

بَعْدَ انْصِرَافِ الْمَرِيضِ وَالطَّبِيبِ، قَالَ السَّيِّدُ رُوثِشِستِر: «كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ. تَعَالِي يَا جِين إِلَى الْحَدِيقَةِ، فَأَنَا لَا أَحْتَمِلُ الْبَقَاءَ هُنَا.»

خَرَجْنَا إِلَى الْحَدِيقَةِ، وَجَلَسْنَا تَحْتَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَبَدَأَتِ الشَّمْسُ تَشْرِقُ، وَخَيَّمَ عَلَى الْحَدِيقَةِ جَوْ سَاحِرٌ جَمِيلٌ.

قَالَ رُوثِشِستِر: «أَنَا آسِفٌ إِنْ كُنْتُ سَبَبْتُ لَكَ كُلَّ هَذَا الْإِزْعَاجِ، فَلَقَدْ كَانَتِ اللَّيْلَةُ حَافِلَةً بِالْحَوَادِثِ الْمُثِيرَةِ. هَلْ خِفْتُ يَا جِين عِنْدَمَا تَرَكْتُكَ وَحْدَكَ مَعَ السَّيِّدِ مِيسُون؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ، لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ أَصْوَاتًا غَرِيبَةً تَصْدُرُ مِنَ الْحُجْرَةِ الْمُجَاوِرَةِ. جَرِيسُ بُوولِ كَانَتْ فِي تِلْكَ الْحُجْرَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ: «بَلَى يَا جِين، وَلَكِنِّي كُنْتُ قَدْ أَوْصَدْتُ عَلَيْهَا الْبَابَ بِالْمِفْتَاحِ، وَلَمْ تَكُونِي مُعَرَّضَةً لِأَيِّ خَطَرٍ.»

سَأَلْتُ: «وَهَلْ زَالَتِ الْآنَ عَنْكَ كُلُّ الْمَتَاعِبِ وَالْأَخْطَارِ؟»

أَجَابَ: «كَلَّا، لَنْ تَزُولَ حَتَّى يَرَحَلَ مِيسُون عَنْ أَنْجِلْتِرَا.»

قُلْتُ: «هَلْ وَجُودُهُ هُنَا هُوَ مَبْعَثُ الْخَطَرِ؟»

قَالَ: «لَا يُمَكِّنُنِي الرَّدُّ عَلَى سُؤَالِكَ هَذَا الْآنَ يَا جِين، وَلَكِنْ سَأُرْوِي لَكَ قِصَّةً وَقَعَتْ أَحْدَاثُهَا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ. بَطُلُ الْقِصَّةِ شَابٌّ فِي مُقْتَبَلِ الْعُمُرِ رَحَلَ إِلَى بِلَادٍ نَائِيَةٍ. وَبَيْنَمَا هُوَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، ارْتَكَبَ خَطَأً جَسِيمًا. وَلَا زَمَتُهُ عَوَاقِبُ ذَلِكَ الْخَطَأِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ. نَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ. جَابَ أَقْطَارَ الْعَالَمِ كُلِّهِ، وَقَامَ بِمُخْتَلِفِ الْأَعْمَالِ وَالْمُحَاوَلَاتِ حَتَّى يَنْسَى، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى. أَخِيرًا عَادَ إِلَى بَيْتِهِ وَقَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ. وَلَمْ يَعُدْ يَرَى مَعْنَى لِلْحَيَاةِ، وَلَكِنَّهُ قَابَلَ شَخْصًا بَعَثَ فِيهِ الْأَمَلَ مِنْ جَدِيدٍ، وَهَيَّأَ لَهُ صُورَةَ حَيَاةٍ هَانِيَةٍ. وَأَصْبَحَ لَا يَتَذَكَّرُ الْمَاضِيَ إِلَّا نَادِرًا، وَفَجْأَةً حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، وَوَجَدَ هَذَا الْإِنْسَانَ أَنَّ وَاجِبَهُ يُحْتَمُّ عَلَيْهِ تَرْكُ هَذَا الطَّرِيقِ الْجَدِيدِ. وَلَكِنَّهُ عَاجِزٌ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحْيَا بِالرَّغْمِ مِمَّا مَضَى، فَمَا رَأَيْكَ يَا جِين؟»

أَذْرَكْتُ - بِالطَّبَعِ - أَنَّ الشَّابَّ كَانَ السَّيِّدَ رُوْثِشْتِرَ نَفْسَهُ، وَأَنَّ الصَّدِيقَ هُوَ أَنَا وَلَكِنْ، تُرَى مَا هُوَ الْخَطَأُ الَّذِي عَكَرَ عَلَيْهِ صَفْوُ حَيَاتِهِ فِي الْمَاضِي، وَلَا يَزَالُ تَأْثِيرُهُ يَمْتَدُّ إِلَى الْحَاضِرِ؟ لَمْ أَعْلَمْ، وَلَمْ أَتَكَلَّمْ، بَلْ جَلَسْنَا صَامَتَيْنِ بِضِعَ دَقَائِقَ. ثُمَّ نَهَضَ وَرَاحَ يَسِيرُ جِيئَةً وَذَهَابًا، وَعَادَ يَقُولُ: «هَيَّا يَا جِين، لِنَعُدْ لِلْمَنْزِلِ حَالًا، فَأَنْتِ شَاحِبَةُ اللَّوْنِ مُرْهَقَةٌ. وَلَكِنْ قَبْلَ ذَهَابِكَ أُرِيدُ مِنْكَ وَعْدًا بِالْأَلَّا تُفْضِي بِمَا حَدَثَ فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ لِأَيِّ إِنْسَانٍ.»

قُلْتُ بِهُدُوءٍ: «أَعِدُّكَ بِذَلِكَ.» وَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ.

الفصل التاسع عشر

وَصَلَّتْني رِسَالَةٌ مِنْ ابْنَةِ خَالَتي إِلِزا في اليَوْمِ التَّالِي، تَسْتَدْعِينِي إلى غَيْسَهيد هُول، لِأَنَّ خَالَتي كَانَتْ مَرِيضَةً، وَطَلَبَتْ أَنْ تَرَانِي قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ. وَقَبِلْتُ الذَّهَابَ مُرْغَمَةً، وَذَهَبْتُ إلى السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتِر لِأَسْتَأْذِنَهُ، وَكَانَ جَالِسًا مَعَ ضَيْوْفِهِ يَلْعَبُ الْوَرَقَ. وَلَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ في رُؤْيَيْهِ بَعْدَ الْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ بَيْنَنَا في الْحَدِيقَةِ. وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ لِي خَالََةً.

سَأَلَنِي: كَمْ يَوْمًا تَنْوِينِ أَنْ تَتَغَيَّبِي؟

أَجَبْتُ: «أُسْبُوعًا وَرُبَّمَا أُسْبُوعَيْنِ، وَذَلِكَ حَسَبَ مَا تَسْتَدْعِيهِ الظُّرُوفُ». قَالَ: «حَاوِلِي أَنْ لَا تَتَغَيَّبِي أَكْثَرَ مِنْ أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ». وَوَعَدْتُهُ أَنْ أَعُودَ فِي أَوَّلِ فُرْصَةٍ مُمَكِّنَةٍ.

تَرَكْتُ ثُورْنِفِيلْد هُول مُبَكَّرَةً، وَوَصَلْتُ غَيْسَهيد بَعْدَ ظَهْرِ اليَوْمِ نَفْسِهِ، نَحْوَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ.

سُرْتُ بِسِي بِلِقَائِي، أَمَّا إِلِزا وَجُورْجِيَانَا، فَقَابَلَتَانِي بِكُلِّ فُتُورٍ وَعَدَمِ مُبَالَاةٍ. وَكَانَتِ السَّنَوَاتُ التَّسْعُ الْمَاضِيَةُ قَدْ غَيَّرَتْهُمَا كَثِيرًا. أَصْبَحَتْ إِلِزا شَابَّةً نَحِيلَةً طَوِيلَةً تَبْدُو عَلَيْهَا عِلَامَاتُ الْجِدِّ وَالصَّرَامَةِ، أَمَّا جُورْجِيَانَا، فَكَانَتْ حَسَنَةً الطَّلَعَةِ، مُمْتَلِئَةً الْجِسْمِ، تَبْدُو مُتَذَمَّرَةً في مُعْظَمِ الْأَوْقَاتِ.

حَدَّثَتَانِي عَنْ مَرَضٍ وَالِدَتِهِمَا، وَكَيْفَ كَانَتْ تَغِيبُ عَنْ وَعِيهَا كَثِيرًا، وَلَا تَعْرِفُ مَنْ حَوْلَهَا، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى الْكَلَامِ. كَذَلِكَ أَخْبَرَتَانِي بِوَفَاةِ أَخِيهِمَا جُونٍ فِي لَنْدَنٍ مُنْذُ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ مَاتَ مُتَّحِرًا. وَقَدْ بَدَأَ مَرَضُ الْأُمِّ مُنْذُ سَمَاعِهَا خَبَرَ وَفَاةِ ابْنِهَا الْأَثِيرِ لَدَيْهَا.

فِي الْمَسَاءِ زُرْتُ السَّيِّدَةَ رِيدَ فِي حُجْرَتِهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْرِفْنِي وَلَمْ تُحَدِّثْنِي طَوَالَ الْأَيَّامِ الْعَشْرَةِ التَّالِيَةِ. وَكُنْتُ أَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا، وَأَجْلِسُ بِجَانِبِهَا سَاعَاتٍ يَوْمِيًّا. فَجَاءَتْ، وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي عَشَرَ التَّفَتَّتْ إِلَيَّ قَائِلَةً: «أَهْذِهِ أَنْتِ يَا جِين؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ.»

قَالَتْ: «أَرَدْتُ أَنْ أَرَاكِ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ. لَقَدْ أَخْطَأْتُ فِي حَقِّكَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَوْضَحَ لَكَ السَّبَبَ. إِذْهَبِي إِلَى مَكْتَبِي، وَأَخْضِرِي لِي الرِّسَالَةَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي سَتَجِدِينَهَا.» وَلَمَّا فَعَلْتُ قَالَتْ: «إِقْرَأِيهَا.»

جَاءَ فِي الرِّسَالَةِ: «عَزِيزَتِي السَّيِّدَةُ رِيدَ، أَرْجُوكِ أَنْ تُرْسِلِي عُنْوَانَ ابْنَةِ أَخِي جِين إِير. أَنَا مُقِيمٌ فِي مَادِيرَا، وَقَدْ أَدْرَكْتَنِي الشَّيْخُوخَةُ، وَلَيْسَ لِي أَوْلَادٌ، وَأَعِيشُ وَحْدِي. أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ جِين مَعِيَ ابْنَةً لِي، أَتْرُكُ لَهَا كُلَّ مَا أَمْلِكُ بَعْدَ وَفَاتِي.»

الْمُخْلِصُ

جُون إِير

كانت الرسالة مكتوبة بتاريخ قديم، مرّت عليه ثلاث سنوات، فسألتها
غاضبة: «لماذا لم تُخبريني بأمر هذه الرسالة قبل الآن؟»



أَجَابَتْ: «لَأَنِّي أَكْرَهُكَ، وَلَنْ أَغْفِرَ لَكَ مَا اقْتَرَفْتَهُ مِنْ ذُنُوبٍ أَثْنَاءَ
وُجُودِكَ هُنَا. لَمْ أَرِدْ أَنْ تَعِيشِي سَعِيدَةً مَعَ عَمِّكَ، بَيْنَمَا كَانَ أَوْلَادِي يُعَانُونَ
هُنَا الْبُؤْسَ وَالْفَقْرَ.» تَوَقَّفَتْ عَنِ الْكَلَامِ وَبَدَأَتْ تَسْعُلُ بِعُنْفٍ طَالِبَةً مَاءً.
قُلْتُ وَأَنَا أُعْطِيهَا الْمَاءَ: «سَيِّدَةُ رِيدَ، أَنَا آسِفَةٌ حَقًّا عَلَى مَا قُلْتُ، وَلَكِنِّي
كُنْتُ طِفْلَةً فَأَرَجُو أَنْ تَنْسِيَ الْمَاضِي، وَتَصْفَحِي عَنِّي.»
لَمْ تَكُنْ تُنْصِتُ لِي، وَوَاصَلَتْ كَلَامَهَا قَائِلَةً: «كَتَبْتُ لِعَمِّكَ وَأَخْبَرْتُهُ
أَنَّكَ تُؤَفِّيتُ أَثْنَاءَ وَبَاءِ التَّيْفُوسِ الَّذِي تَفَشَّى فِي لُود. كُنْتُ أَكْرَهُكَ.
وَمَا زِلْتُ أَكْرَهُكَ.»

قُلْتُ: «أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَنْسِيَ الْمَاضِي، وَدَعِينَا نَتَصَافَحُ وَنَكُونُ
أَصْدِقَاءَ. هَيَّا قَبْلِينِي!»
هَمَمْتُ بِتَقْبِيلِهَا فَأَشَاحَتْ بِوَجْهِهَا عَنِّي، دُونَ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا، فَانْصَرَفْتُ.
حَضَرْتُ بَسِي إِلَى حُجْرَتِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقَالَتْ: «لَقَدْ مَاتَتِ السَّيِّدَةُ
رِيدَ.»

نَهَضْتُ مِنْ فِرَاشِي وَذَهَبْتُ إِلَى حُجْرَتِهَا، فَوَجَدْتُ إِلِيزَا وَجُورْجِيَانَا
هُنَاكَ. وَوَقَفْنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ - حَوْلَ الْفِرَاشِ - نَنْظُرُ إِلَى الْجُثْمَانِ الْمُسَجَّى
عَلَيْهِ، دُونَ بُكَاءٍ.

الفصل العشرون

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ إِقَامَتِي فِي غَيْتْسِهَيْد لَنْ تَطُولَ كَثِيرًا، وَلَكِنْ انْقَضَى شَهْرٌ قَبْلَ أَنْ أَتِمَّكَنَ مِنَ الرَّحِيلِ. شَعَرْتُ بِحَاجَةِ إِلِيزَا وَجُورْجِيَانَا إِلَى وَجُودِي بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدَتَيْهِمَا، فَمَكَّثْتُ مَعَهُمَا إِلَى أَنْ ذَهَبْتُ جُورْجِيَانَا لِتَعِيشَ فِي لَنْدَن، وَرَحَلْتُ إِلِيزَا إِلَى فَرَنْسَا. وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُمَا بِكَلِمَةٍ شُكْرٍ عَلَى مُسَاعَدَتِي لَهُمَا.

عُدْتُ إِلَى ثُورْنْفِيلْد هُول، وَأَنَا أَشْعُرُ بِأَنِّي عَائِدَةٌ إِلَى بَيْتِي. كُنْتُ سَعِيدَةً بِالرَّغْمِ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ثُورْنْفِيلْد لَنْ تَظَلَّ بَيْتًا لِي مُدَّةً طَوِيلَةً. وَعِنْدَمَا تَرَكْتُ ثُورْنْفِيلْد، كَانَ الْكُلُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ قُرْبِ زَوَاجِ السَّيِّدِ رُوثْشِيسْتِر بِالْآنِسَةِ إِنْجْرَام. وَأَثْنَاءَ وَجُودِي فِي غَيْتْسِهَيْد، وَصَلْتَنِي رِسَالَةٌ مِنَ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْس تُؤَكِّدُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ.

كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ لَا يَكُونَ الْخَبَرُ صَحِيحًا، وَلَكِنِّي تَذَكَّرْتُ كُلَّ مُحَاوَلَاتِ الْآنِسَةِ إِنْجْرَام لِاجْتِدَابِ السَّيِّدِ رُوثْشِيسْتِر وَالتَّحَكُّمِ فِي عَوَاطِفِهِ. تَذَكَّرْتُ حَدِيثَهُ لِي فِي الْحَدِيقَةِ، تُرَى مَاذَا كَانَ يَعْنِي؟ وَمَا الْغَرَضُ الَّذِي كَانَ يَسْعَى إِلَيْهِ؟ بَدَا لِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُعَقَّدٌ غَامِضٌ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا، وَهُوَ وَجُوبُ رَحِيلِي أَنَا وَأَدِيل عَنْ ثُورْنْفِيلْد هُول إِذَا مَا تَمَّ هَذَا الزَّوَاجُ.

حَمَلْتَنِي الْمَرْكَبَةُ إِلَى مِيلْكُوت، وَمِنْهَا ذَهَبْتُ إِلَى ثُورْنْفِيلْد سِيرًا عَلَى الْأَقْدَامِ. كَانَ الْجَوُّ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ جَمِيلًا، فَحَاوَلْتُ أَنْ أَتَمَتَّعَ بِهِ، وَلَكِنْ أَفْكَارِي الْكَثِيرَةُ لَمْ تُفَارِقْنِي، وَكَانَتْ تَدُورُ كُلُّهَا حَوْلَ السَّيِّدِ

رُوثِشْتَر وَالْآنِسَةِ إِنْجَرَام.

كَانَتْ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْس قَدْ أَخْبَرْتَنِي فِي خِطَابِهَا أَنَّ السَّيِّدَ رُوثِشْتَر قَدْ تَرَكَ ثُورْنْفِيلِد وَذَهَبَ مَعَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ إِلَى لَنْدَن لِقَضَاءِ بَضْعَةٍ أُسَابِيعَ. وَلِلذَلِكَ دَهَشْتُ عِنْدَمَا التَّقَيْتُ بِهِ فِي طَرِيقِي إِلَى ثُورْنْفِيلِد، وَكَانَ جَالِسًا عِنْدَ بَوَابَةٍ. وَلَمْ أُرِدْ أَنْ أَقَابِلَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لِذَلِكَ اسْتَدَرْتُ عَائِدَةً، وَلَكِنَّهُ بَادَرَنِي بِقَوْلِهِ: «أَهْلًا يَا جِين! لِمَاذَا تَغَيَّبْتَ هَذِهِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ؟»

قُلْتُ: «لَقَدْ مَاتَتْ خَالَتِي، وَاضْطُرَرْتُ لِلْبَقَاءِ مَعَ ابْنَتَيْهَا حَتَّى الْآنَ.»

سَأَلَنِي: «لِمَاذَا بَدَتْ عَلَيْكَ الدَّهْشَةُ حِينَ رَأَيْتَنِي؟»

قُلْتُ: «لِأَنِّي سَمِعْتُ مِنَ السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْس أَنَّكَ ذَهَبْتَ إِلَى لَنْدَن.»

سَأَلَنِي: «هَلْ أَخْبَرْتِكَ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْس عَنْ سَبَبِ ذَهَابِي لِلْنَدَن؟»

أَجَبْتُ: «نَعَمْ، فَالْكُلُّ يَعْرِفُ السَّبَبَ.» وَقَصَّذْتُ بِذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيَشْتَرِيَ مَا يَحْتَاجُهُ اسْتِعْدَادًا لِحَفْلِ زِفَافِهِ. أَمَّا هُوَ فَقَالَ:

«لَقَدْ اشْتَرَيْتُ مَرْكَبَةً جَدِيدَةً، وَأَرْغَبُ فِي أَنْ أَعْرِفَ رَأْيَكَ فِيهَا، وَعَمَّا إِذَا كُنْتَ تَعْتَقِدِينَ بِأَنَّهَا سَتَحُوزُ إعْجَابَ السَّيِّدَةِ رُوثِشْتَر الْجَدِيدَةِ أَمْ لَا.» وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً خَاصَّةً، كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَرَاهَا عَلَى وَجْهِهِ فِي الْمُدَّةِ الْآخِرَةِ.

وَلَكِنْ، مَنْ تَكُونُ السَّيِّدَةُ رُوثِشِستَرُ الْجَدِيدَةُ؟ هَلْ هِيَ الْآنِسَةُ إِنْجَرَامُ، أَمْ
امْرَأَةٌ أُخْرَى؟ وَلِمَاذَا يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيِي؟
قُلْتُ: «سَأَقُولُ لَكَ رَأْيِي إِذَا رَغِبْتُ.»
أَسْرَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ وَأَنَا فِي حَيْرَةٍ، وَقَابَلَتْنِي السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكُسُ وَأَدِيلُ
بِحَفَاوَةٍ وَتَرْحِيبٍ بَعَثَا السُّرُورَ فِي نَفْسِي. وَشَعَرْتُ بِأَنِّي عُدْتُ إِلَى بَيْتِي،
وَكَمْ تَمَنَيْتُ أَلَّا يَتِمَّ زَوَاجُ السَّيِّدِ رُوثِشِستَرِ بِالْآنِسَةِ إِنْجَرَامُ.

الفصل الحادي والعشرون

لَمْ أَرَ أَيَّ اسْتِعْدَادَاتٍ لِحَفْلِ الزَّوْاجِ الْمُتَنَظَّرِ خِلَالَ الْأَسَابِيعِ الَّتِي مَضَتْ
بَعْدَ عَوْدَتِي. وَاسْتَقَرَّ السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَر بَيْنَنَا، وَكَانَ دَائِمًا يُعَامِلُنِي بِعُطْفٍ
وَمَوَدَّةٍ. وَكُنْتُ أَنَا وَأَدِيلُ نَذْهَبُ إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ كُلَّ مَسَاءٍ، وَبَيْنَمَا
كَانَتْ أَدِيلُ تَلْعَبُ مَعَ الْكَلْبِ بَيْلُوتَ، كُنْتُ وَالسَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَر نَتَجَادَبُ
أَطْرَافَ الْحَدِيثِ. وَازْدَادَ حُبِّي لَهُ حَتَّى مَلَأَ قَلْبِي وَوَجَدَانِي.

ذَاتَ مَسَاءٍ، فِي أَوَاسِطِ شَهْرِ يُونِيهِ، خَرَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ وَخَدِي، حَيْثُ
كَانَتْ أَدِيلُ مُتَعَبَةً وَذَهَبَتْ مُبَكَّرَةً إِلَى الْفِرَاشِ. وَكَانَ جَوُّ الْمَسَاءِ بَارِدًا
مُنْعِشًا، بَعْدَ حَرَارَةِ النَّهَارِ. وَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ، رَأَيْتُ السَّيِّدَ رُوْتِشْسْتَر مُقْبِلًا
نَحْوِي.

قَالَ: «تَعَالِي انْظُرِي إِلَى هَذِهِ الْوَرْدَةِ. مَا أَبْدَعَهَا! لَمْ أَرَ لَهَا مِثْلًا هُنَا فِي
إِنْجِلْتْرَا قَبْلَ الْيَوْمِ.»

كَانَتْ وَرْدَةٌ جَمِيلَةٌ حَقًّا، وَأَبْدَيْتُ إِعْجَابِي بِهَا، وَكُنْتُ عَلَى وَشْكِ أَنْ
أَنْصَرِفَ عِنْدَمَا قَالَ:

«أَرْجوكِ يَا جِين! ابْقِي مَعِي قَلِيلًا، لِنَنْعَمَ بِهَذَا الْجَوِّ الرَّائِعِ.» ثُمَّ رَاحَ
يَتَحَدَّثُ عَنْ ثُورْنِفِيلْد هُوْل - بَيْتِهِ - ثُمَّ سَأَلَنِي: «هَلْ يُؤْلِمُكَ أَنْ تَتْرُكِي
هَذَا الْمَكَانَ يَا جِين؟»

أَجَبْتُ: «وَلِمَاذَا أَتْرُكُ ثُورْنِفِيلْد يَا سَيِّدِي؟»

قَالَ: «آسَفُ يَا جِين، وَلَكِنِّي أَجِدُ ذَلِكَ ضَرُورِيًّا.»

سَأَلَتْهُ: «هَلْ عَزَمْتَ إِذَا عَلَى الزَّوْاجِ؟»

أَجَابَ: «نَعَمْ، فَقَدْ اسْتَقَرَّ رَأْيِي أَخِيرًا. تَعَالَيْ نَجْلِسْ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لِبُضْعِ دَقَائِقٍ.»

جَلَسْتُ صَامِتَةً حَزِينَةً أَفْكُرُ، وَسَأَلَنِي: «هَلْ حَقًّا سَتَحْزَنِينَ لِتَرْكِ هَذَا الْمَكَانِ؟» قُلْتُ وَالِدَّمْعُ يَكَادُ يَفِرُّ مِنْ عَيْنَيَّ: «إِنِّي أَحِبُّ هَذَا الْمَكَانَ، لَقَدْ قَضَيْتُ هُنَا أَسْعَدَ أَيَّامَ حَيَاتِي، وَعِشْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَيَّامًا هَنِئَةً مُجَرَّدَةً مِنَ الْخَوْفِ، وَهَا أَنَا الْآنَ أَجِدُ أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أَرْحَلَ.»

سَأَلَ: «لِمَاذَا عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَلِي.»

قُلْتُ: «أَنْتَ نَفْسُكَ قُلْتَ ذَلِكَ، مِنْ لَحْظَةٍ يَا سَيِّدِي. لَا شَكَّ لَأَنَّكَ سَتَتَزَوَّجُ الْآنِسَةَ إِنْجْرَامَ.»

صَرَخَ قَائِلًا: «لَا، لَا يَا جِين. أَنَا لَنْ أَتَزَوَّجَ الْآنِسَةَ إِنْجْرَامَ، بَلْ سَأَتَزَوَّجُكَ أَنْتِ. وَبَعْدَ الزَّوْاجِ، نَتْرُكُ ثُورُنْفِيلِدَ مَعًا.» وَأَخَذَنِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَأَرَادَ أَنْ يُقْبِلَنِي، فَدَفَعْتُهُ عَنِّي قَائِلَةً: «أَرْجُوكِ، هَذَا غَيْرُ لَائِقٍ.»

قَالَ: «إِسْمَعِي يَا جِين، أَنَا أَقْدِمُ لَكَ قَلْبِي وَحُبِّي وَحَيَاتِي كُلَّهَا. فَهَلْ تَقْبَلِينَ زَوْجًا؟»

نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى الْكَلَامِ مِنْ شِدَّةِ ذُهُولِي وَفَرَحِي.

قَالَ: «أَنْتِ تَعْلَمِينَ حَقَّ الْعِلْمِ بِأَنِّي لَمْ أَحِبَّ الْآنِسَةَ إِنْجْرَامَ، وَلَمْ تُحِبَّنِي. وَهَا قَدْ مَرَّ عَلَيْنَا شَهْرٌ لَمْ يُوَجِّهْ أَحَدُنَا كَلِمَةً وَاحِدَةً لِلْآخَرِ. لَقَدْ اكْتَشَفْتُ أَخِيرًا أَنَّي لَسْتُ غَنِيًّا كَمَا كَانَتْ تَتَخَيَّلُ، وَلِلذَلِكَ كَفْتُ عَنْ

مُلاحَظَتِي. أَنْتِ يَا جِينِ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَحْبَبْتُهُ، فَأَرْجُوكِ أَنْ لَا تُعْرِضِي عَنِّي.»

قُلْتُ: «إِذَا كُنْتُ حَقًّا تُحِبُّنِي، يُسَعِدُنِي أَنْ أَكُونَ زَوْجَتَكَ يَا إِدْوَارد.» وَنَطَقْتُ بِاسْمِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

قَالَ: «مَا أَسْعَدَنِي يَا جِينِ، لَقَدْ أَحْبَبْتُكَ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى الَّتِي وَقَعَ فِيهَا بَصْرِي عَلَيْكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ شُعُورَكَ نَحْوِي. أَمَّا الْآنَ فَأَنَا وَاثِقٌ أَنَّكَ تُبَادِلِينِي الْحُبَّ.» ثُمَّ أَخَذَنِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ قَائِلًا: «سَامِحْنِي يَا إِلَهِي: لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهَا، وَسَأَحْتَفِظُ بِهَا وَلَنْ يُفَرِّقَنَا إِنْسَانٌ.»

قُلْتُ: «لَنْ يُفَرِّقَنَا أَحَدٌ يَا إِدْوَارد، إِنَّنِي حُرَّةٌ التَّصَرُّفِ، وَلَيْسَ لِي أُسْرَةٌ تَتَدَخَّلُ فِي شُؤُونِي.»

قَالَ: «نَعَمْ.» وَلَا أَظُنُّهُ كَانَ مُصْغِيًّا، فَقَدْ اسْتَمَرَ يَقُولُ: «نَعَمْ وَجَدْتُهَا، وَهِيَ وَحِيدَةٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ. وَسَأَرْعَاهَا مَا حَيْثُ، وَسَوْفَ أَقْتُلُ أَيَّ شَخْصٍ يَعْتَرِضُ طَرِيقِي.»

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، حَجَبَتِ السُّحُبُ وَجْهَ الْقَمَرِ، وَهَبَّتْ رِيَا حُ شَدِيدَةٌ مُنْذِرَةً بِاقْتِرَابِ عَاصِفَةٍ. هَرَوْنَا مُسْرِعَيْنِ إِلَى الدَّارِ، وَلَكِنَّ الْأَمْطَارَ هَطَلَتْ عَلَيْنَا، وَبَلَّلَتْنَا قَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ. كُنَّا نَضْحَكُ وَنَجْرِي كَالْأَطْفَالِ، وَعِنْدَ بَابِ غُرْفَتِي قَالَ لِي إِدْوَارد: «أَسْرِعِي وَاخْلَعِي مَلَابِسَكَ الْمُبَلَّلَةَ هَذِهِ. طَابَ مَسَاوُكِ يَا حَبِيبَتِي جِينِ.»

الفصل الثاني والعشرون

نِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَوْمًا عَمِيقًا هَانِئًا، بِالرَّغْمِ مِنَ الْعَاصِفَةِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ طَوَالَ اللَّيْلِ. وَعَلِمْتُ مِنْ أَدِيلٍ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ الْعَاصِفَةَ قَدْ أَسْقَطَتْ إِحْدَى أَشْجَارِ الْحَدِيقَةِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ هِيَ نَفْسُهَا الَّتِي جَلَسْتُ تَحْتَهَا مَعَ السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتَرِ.

ذَهَلَتِ السَّيِّدَةُ فِيرُفَاكْسَ عِنْدَمَا سَمِعَتْ بِخَبَرِ زَوَاجِي الْوَشِيكَ، وَحَذَّرَتْنِي قَائِلَةً: «أَنَا لَمْ أَسْمَعْ مِنْ قَبْلُ عَنْ سَيِّدٍ يَقْتَرِنُ بِمُرَبِّيةٍ تَعْمَلُ عِنْدَهُ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا هَذَا الْفَرْقُ فِي السِّنِّ.» وَكَانَ السَّيِّدُ رُوْتِشِسْتَرُ يَكْبُرُنِي بِنَحْوِ عِشْرِينَ عَامًا. وَتَضَايَقْتُ مِمَّا قَالَتْهُ السَّيِّدَةُ فِيرُفَاكْسَ، وَلَكِنِّي كَتَمْتُ غَيْظِي، وَلَمْ أَعُدْ أَهْتَمُّ بِأَحَدٍ أَوْ بِشَيْءٍ. كَانَ كُلُّ مَا يَهْمُنِي هُوَ ثِقَتِي بِأَنَا مُتَحَابِّانِ أَنَا وَالسَّيِّدُ رُوْتِشِسْتَرُ. أَمَّا أَدِيلُ فَقَدْ سُرَّتْ بِالْخَبَرِ.

حَدَّدْنَا مَوْعِدَ الزَّوْاجِ، عَلَى أَنْ يَتِمَّ بَعْدَ شَهْرٍ، وَانْقَضَى الشَّهْرُ بِسُرْعَةٍ. وَكَتَبْتُ إِلَى عَمِّي جُونِ الْمُقِيمِ فِي مَادِيرَا وَأَخْبَرْتُهُ عَنْ عَزْمِي عَلَى الزَّوْاجِ مِنَ السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتَرِ، حَتَّى يُرْسِلَ لِي بَعْضَ الْمَالِ لِأَصْرِفَهُ عَلَى حَاجَاتِي الْخَاصَّةِ. وَلَمْ أَتَلَقَّ مِنْهُ رَدًّا.

وَفِي الْيَوْمِ السَّابِقِ لِيَوْمِ الزَّفَافِ، اضْطُرَّ السَّيِّدُ رُوْتِشِسْتَرُ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ لِقَضَاءِ عَمَلٍ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْجِيلَ فِي إِحْدَى مَزَارِعِهِ الَّتِي تَبْعُدُ نَحْوَ عِشْرِينَ مِيلًا. وَأَثْنَاءَ غِيَابِهِ أَعْدَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى حَقَائِبَ السَّفَرِ، إِذْ كُنَّا

عازمين على الرحيل مباشرة بعد عقد القران لقضاء شهر العسل في
أوروبا.

وفي المساء جلست أنتظر عودة السيد روثشستر، وكنت قلقة ومتوترة
الأعصاب، فخرجت إلى الحديقة لأروح عن نفسي. كان هناك ما يقلق
راحتي، ويشغل بالي، وأردت أن أحدث السيد روثشستر عنه بنفسي.

أقبل الظلام ولم يحضر، وأخذت الهواجس تجيش في صدري.
وسرت بعض الطريق عسى أن أقابله، ورأيت الشجرة التي أسقطتها
العواصف مجردة من الحياة، ملقاة على الأرض، ورأيت فيها نذير شؤم.
وأخيرًا رأيته مقبلًا على ظهر جواده، ويئلت يعدو بجانبه. وأسرع
إليه وعندما رآني قال وهو يضحك: «ما هذا؟ ألا يمكنك العيش بدوني
يومًا واحدًا؟ الآن عرفت أنك تحبيني يا جين.» وركبت الحصان أمامه،
وعدنا معًا إلى ثورنفلد. وسألني ونحن في الطريق: «هل حدث شيء في
ثورنفلد أثناء غيابي؟»

أجبت: «لا شيء ذا أهمية، وسأخبرك بعد أن نصل إلى الدار.»
وعندما جلسنا لتناول العشاء أخبرته بما كان يقلقني. قلت:
«أمس كان يومًا مشحونًا بالأعمال بالنسبة لي، وقبل أن أذهب

لِلْفِرَاشِ، أَرْتَنِي صُوفِي الطَّرْحَةَ وَثَوْبَ الزَّفَافِ الْأَبْيَضِ الَّذِي أَعَدَّتْهُ لِي.
الطَّرْحَةُ الَّتِي أَتَيْتَنِي بِهَا مِنْ لَنْدَنَ يَا إِدْوَارْدَ، إِنَّهَا جَمِيلَةٌ جِدًّا، وَلَكِنْ لِلْأَسْفِ
لَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَسْتَعْمِلَهَا.»

قَالَ: «أَنَا لَا أَفْهَمُ، لِمَاذَا لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَهَا؟ لَقَدْ سَبَقَ وَمَنْعَتَنِي
مِنْ أَنْ أَشْتَرِيَ حُلِيًّا أَوْ جَوَاهِرَ، وَلَكِنْ الطَّرْحَةُ: مَا سَبَبُ إِعْرَاضِكَ عَنْهَا؟»
قُلْتُ: «إِنْتَظِرْ حَتَّى تَسْمَعَ بَقِيَّةَ حَدِيثِي. لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى فِرَاشِي مُبَكَّرَةً
لِأَنِّي كُنْتُ مُتْعَبَةً، وَلَكِنِّي لَمْ أَنْمِ نَوْمًا مُرِيحًا. وَحَلَمْتُ أَحْلَامًا مُزَعِجَةً،
وَاسْتَيْقَظْتُ فِي مُتَنَصَفِ اللَّيْلِ عَلَى نُورٍ فِي الْحُجْرَةِ. وَظَنَنْتُ أَوَّلًا أَنَّهُ
ضَوْءُ الْفَجْرِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ ضَجِيجًا فِي الْغُرْفَةِ وَرَأَيْتُ خَيَالَ امْرَأَةٍ واقِفَةٍ
ظَنَنْتُهَا صُوفِي، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ صُوفِي، وَلَمْ تَكُنِ السَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسَ، وَلَا
إِحْدَى الْخَادِمَاتِ، وَلَا حَتَّى جَرِيسُ بُوُول.»

سَأَلَ: «مَنْ كَانَتْ إِذَا؟»

قُلْتُ: «لَا أَعْلَمُ. كَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةَ الْقَامَةِ، عَرِيضَةَ الْكَتِفَيْنِ، ذَاتَ شَعْرِ
أَسْوَدَ، وَتَرْتَدِي ثَوْبًا أَبْيَضَ.»

قَالَ: «هَلْ رَأَيْتِ وَجْهَهَا؟»

قُلْتُ: «كَلَّا، لِأَنَّهَا ذَهَبَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَتِ الطَّرْحَةُ وَفُسْتَانُ الزَّفَافِ
مُعْلَقَيْنِ، وَأَمْسَكَتِ الطَّرْحَةَ وَمَزَّقَتْهَا وَأَلْقَتْ بِهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَخَذَتِ
السَّمْعَةَ وَخَرَجَتْ. وَعِنْدَمَا أَفَقْتُ فِي وَقْتِ تَالٍ كَانَ النَّهَارُ قَدْ بَزَغَ.»

قَالَ السَّيِّدُ رُوْتَشِسْتَر بِهْدَوِءٍ: «لَا شَكَّ أَنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمِينَ يَا جِين. إِنْسِي مَا رَأَيْتِ وَاهْدَيْتِي، فَقَدْ كُنْتَ أَمْسَ مُتَوَتِّرَةً الْأَعْصَابِ.»

قُلْتُ: «لَا يَا إِدْوَارْد، مَا رَأَيْتُ لَمْ يَكُنْ حُلْمًا بَلْ حَقِيقَةً. لَقَدْ تَأَكَّدْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا اسْتَيْقَظْتُ، وَوَجَدْتُ الطَّرْحَةَ مُمَزَّقَةً وَمُلْقَاةً عَلَى الْأَرْضِ.»

صَاحَ قَائِلًا: «أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا حَبِيبَتِي، فَقَدْ كُنْتَ أَقْرَبَ إِلَى الْخَطَرِ مِمَّا تَظُنِّينَ.»

قُلْتُ: «أَرْجوكَ أَنْ تُصَارِحَنِي يَا إِدْوَارْد، مَنْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ؟»

قَالَ: «دَعِينَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ الْآنَ يَا جِين، رُبَّمَا كَانَتْ جَرِيسُ بُوُول، وَقَدْ شَاهَدْتُ بَعْضَ مَا تَقُومُ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجُنُونِيَّةِ. إِنَّهَا خَطِرَةٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ. قَدْ تَتَعَجَّبِينَ مِنْ إِيوَائِي لَهَا فِي دَارِي، وَلَكِنِّي لَنْ أَقُولَ شَيْئًا الْآنَ، وَأَعِدُّكَ بِأَنِّي سَأُطْلِعُكَ عَلَى كُلِّ أَسْرَارِي، بَعْدَ أَنْ يَمُرَّ عَامٌ عَلَى زَوَاجِنَا. وَالْآنَ، لِنَنْسَ مَا حَدَثَ وَلِنَفَكِّرْ فِي الْغَدِ. غَدًا سَيُصْبِحُ بَيْنَنَا رِبَاطٌ لَا يَنْفَصِمُ، وَالْآنَ طَابَ مَسَاوُكُ يَا جِين.»

نِمْتُ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا، وَرَغَمًا عَنِّي كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي كُلِّ مَا يَحُوطُنِي وَيَحْدُثُ حَوْلِي مِنَ الْأَغَازِ.

الفصل الثالث والعشرون

في اليوم التالي، حضرت صوفي في الساعة السابعة مساءً لتُساعدني على ارتداء ملابسِي. وكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ السَّيِّدَ رُوْتِشْسْتِر في انتِظارِي، وَأَسْرَعْتُ بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِي. وَقَبْلَ أَنْ أَهْبِطَ مِنْ غُرْفَتِي لَمَحْتُ مِنَ النَّافِذَةِ رَجُلَيْنِ كَانَا يَقْفَانِ بِيَابِ الْمَنْزِلِ، وَقَدْ أَثَارَا فِي دَاخِلِي الْخَوْفَ دُونَ أَنْ أَذْرِي سَبَبًا لِذَلِكَ. وَنَزَلْتُ مِنْ غُرْفَتِي حَيْثُ كَانَ رُوْتِشْسْتِر في اسْتِقبَالِي. وَقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ مَرَامِسَ الزَّوْاجِ، رَأَيْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ يَتَسَلَّلُ إِلَى الدَّاخِلِ وَيَقُولُ مُعْتَرِضًا: «إِنَّ هَذَا الْقِرَانَ بَاطِلٌ.»

حَاوَلَ الْمَوْجُودُونَ مَنَعَهُ، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ يَقُولُ: «قُلْتُ إِنَّ هَذَا الْقِرَانَ بَاطِلٌ لِأَنَّ السَّيِّدَ رُوْتِشْسْتِر مُتَزَوِّجٌ. زَوْجَتُهُ مَا زَالَتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَقَانُونُ هَذَا الْبَلَدِ يَنْصُ عَلَى بُطْلَانِ الزَّوْاجِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ.»

انْقَبَضَ قَلْبِي، وَنَظَرْتُ إِلَى السَّيِّدِ رُوْتِشْسْتِر، فَقَرَأْتُ فِي عَيْنَيْهِ قَسْوَةً وَصَرَامَةً لَمْ أَعْهَدُهُمَا بِهِ مِنْ قَبْلُ. إِلَّا أَنَّهُ صَمَتَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، بَلْ شَدَّ عَلَى يَدَيَّ وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَالَ لِلرَّجُلِ: «مَنْ تَكُونُ أَنْتَ؟»

رَدَّ الرَّجُلُ: «اسْمِي بَرِيْجَز.»

قَالَ رُوْتِشْسْتِر: «بَرَهْنُ عَلَى مَا تَقُولُهُ.»

قَالَ الرَّجُلُ: «مَعِيَ هُنَا مُسْتَنَدٌ يَقُولُ إِنَّ إِدْوَارْدَ رُوْتِشْسْتِر تَزَوَّجَ بِرُتَا مَيْسُونِ فِي جَامِيْكََا فِي يَوْمِ ٢٠ أَكْتُوبَرِ سَنَةِ ١٨٠٨، وَقَدْ سَلَّمَنِي هَذَا

المُسْتَنْدَ شَقِيقُ زَوْجَتِكَ بِصِفَتِي مُحَامِيًّا لَهُ وَوَكِيًّا عَنْهُ.»
 قَالَ رُوْتَشِسْتَرُ: «وَلَكِنَّ هَذَا لَا يُثْبِتُ أَنَّ زَوْجَتِي مَا زَالَتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.
 لَقَدْ مَضَى خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا عَلَى تَارِيخِ هَذَا الْمُسْتَنْدِ.»
 قَالَ بَرِيحُزْ مُنَادِيًّا عَلَى الرَّجُلِ الثَّانِي: «تَعَالِ يَا سَيِّدُ مِيسُونِ. أَلَمْ تَرَ
 شَقِيقَتَكَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فَقَطُ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ رُوْتَشِسْتَرِ؟»
 تَقَدَّمَ السَّيِّدُ مِيسُونِ. إِنَّهُ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتُهُ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فِي تِلْكَ
 الْغُرْفَةِ الرَّهِيبةِ. وَكَانَ مُمْتَقِعَ (شَا حِبِّ) الْوَجْهِ صَامِتًا. تَنَهَّدَ وَقَالَ: «نَعَمْ
 لَقَدْ رَأَيْتُ شَقِيقَتِي - زَوْجَةَ السَّيِّدِ رُوْتَشِسْتَرِ - هُنَا مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فَقَطُ.»
 قَالَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ مُتَعَجِّبًا: «تَقُولُ هُنَا! هَذَا مُسْتَحِيلٌ لَقَدْ مَضَى عَلَيَّ
 فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ سَنَوَاتٌ عَدِيدَةٌ، لَمْ أَسْمَعْ فِيهَا قَطُّ عَنْ وُجُودِ زَوْجَةِ السَّيِّدِ
 رُوْتَشِسْتَرِ.»

قَالَ رُوْتَشِسْتَرُ: «طَبْعًا يَا سَيِّدِي، لِأَنِّي لَمْ أُعْلِنُ لِلْمَلَأِ عَنْ وُجُودِ زَوْجَتِي
 الْمَجْنُونَةِ، وَقَدْ سَمِعْتَ بِلَا شَكٍّ عَنْ وُجُودِ امْرَأَةٍ مَجْنُونَةٍ فِي ثُورْنْفِيلِدِ.
 تِلْكَ هِيَ زَوْجَتِي. تَعَالَوْا مَعِيَ جَمِيعًا لِنَرَوْا بِأَنْفُسِكُمْ مَا حَاوَلْتُ أَنْ أَهْرُبَ
 مِنْهُ.» وَبِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ تَرَكَ مَكَانَهُ وَاتَّجَهَ نَاحِيَةَ السُّلَمِ وَصَعِدَهُ.

تَبِعْنَاهُ إِلَى الطَّابَقِ الثَّالِثِ، فَدَفَعَ بَابَ الْحُجْرَةِ الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا مِيسُونِ
 جَرِيحًا ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخَرَ دَاخِلَهَا، وَقَادَنَا إِلَى غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ النَّوَافِذِ.
 وَرَأَيْتُ جَرِيْسَ بُوُولٍ جَالِسَةً فِيهَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَوْقِدِ تَطْهَوُ بَعْضَ الطَّعَامِ.

قال روثشستر: «صباح الخير يا سيّدة بُول، كيف حال زوجتي اليوم؟»
قالت: «لا بأس، فهي اليوم على شيءٍ من الغضبِ لكنها ليست خطيرةً.
ثم، وسط الظلام، رأيتُ المرأة التي زارتُ حُجرتي في مُتّصفِ الليلِ.
بدتُ كَوَحشٍ كاسِرٍ، فقد ارتكزتُ على أطرافها الأربعة، وأخذتُ تَزمِجُ
وتَصيحُ بأصواتٍ مُرعبة. وعندما وَقَعَ نَظَرُها على السيّد روثشستر
أسرعتُ نحوه، وصرختُ جريس بُول: «انصرف يا سيّدي، فقد أثارتها
رؤيتُك.»

قال: «كلا لَنُ انصرف، فأنا أريدُ أَنْ يَعْرِفَ هؤلاءِ السّادة مَنْ هي
زوجتي.»

في تلكَ اللَّحظة، طوّقتِ المرأةُ الرّهيبةُ عُنقَ زوجها بيديها، لا عن حُبٍّ
ولكنْ بدتُ كَمَنْ يُريدُ قتلَهُ. وكانتُ عندها القوّةُ الكافيةُ لِتَنفِذِ ما أَرادتُ.
قاومها السيّد روثشستر بِكُلِّ قُوّتهِ إلى أَنْ تَمَكَّنَ مِنْ دَفْعِها إلى مَقْعَدٍ،
وأوثقَ يديها وقدميها. وكان طوالَ الوقتِ يَتَجَنَّبُ إيذاءها ما أمكنَ.
حاولَ ميسون - خلالَ الصّراع - أَنْ يَتَسَلَّلَ وَيَهْرُبَ، ولكنْ روثشستر
أمرُهُ أَنْ يَبْقَى فَاطاعَ.

وعندما هدأتِ المرأةُ قال روثشستر: «هذه هي زوجتي، وهذا هو
سُلوُكُها مُنْذُ خَمْسَةِ عَشَرَ عامًا. إنَّها مَجْنُونَةٌ، وقد كانتُ أمُّها قَبْلَها



مَجْنُونَةٌ أَيْضًا، كَمَا أَنَّ لَهَا أَخًا مَجْنُونًا. لَمْ أَعْرِفْ شَيْئًا عَنْ كُلِّ هَذَا قَبْلَ
زَوَاجِي. « ثُمَّ التَفَتَ إِلَى مَيْسُونٍ قَائِلًا: «لَقَدْ حَاوَلْتُ جَهْدِي، وَلَكِنِّي

عَاجِزٌ عَنْ أَنْ أَرُدَّهَا لِعَقْلِهَا.» ثُمَّ أَشَارَ إِلَيَّ قَائِلًا: «هَذِهِ هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا. هَذِهِ الْفَتَاةُ الْعَزِيزَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي تَقِفُ أَمَامَكُمْ صَامِتَةً تُعَانِي أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْأَسَى وَالْأَلَمِ. أَنَا أَعْلَمُ أَنَّي قَدْ اقْتَرَفْتُ جُرْمًا فِي حَقِّهَا، وَلَكِنِّي أَشْعُرُ بِشَدِيدِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَأَرَدْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَهَا دُونَ أَنْ تَعْلَمَ شَيْئًا عَنْ زِيَجَتِي الْأُولَى.» سَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ قَالَ: «إِذْهَبُوا عَنِّي! هَيَّا انصَرِفْ يَا بَرِيحُزْ وَأَنْتَ يَا مِيسُونُ، انصَرِفَا وَلَا تَطَّأَا عَتَبَةَ بَابِي أَبَدًا. لَقَدْ شَاهَدْتُكُمْ جَمِيعًا جَهَنَّمَ الَّتِي أَعِيشُ فِيهَا. هَيَّا ارْحَلُوا بِلا رَجْعَةٍ.»

خَرَجْنَا وَتَرَكْنَا السَّيِّدَ رُوْتِشْسْتَرِيتَحَدَّثْتُ مَعَ جَرِيسِ بُوُولٍ، وَأَقْبَلَ بَرِيحُزْ يُحَدِّثُنِي. قَالَ: «آنِسَةُ إِيرَ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ بَرِيئَةٌ مِمَّا حَدَثَ، وَسَيَسِرُّ عَمَّاكَ لِسَمَاعِ ذَلِكَ - إِذَا كَانَ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ - عِنْدَ عَوْدَةِ السَّيِّدِ مِيسُونُ إِلَى مَادِيرَا.»

سَأَلْتُه: «هَلْ تَعْرِفُ عَمِّي يَا سَيِّدِي؟»

أَجَابَ: «كَلَّا، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ مِيسُونَ صَدِيقَهُ، وَكَانَ مُقِيمًا مَعَهُ عِنْدَمَا وَصَلَ عَمَّاكَ خِطَابٌ مِنْكَ تُخْبِرِينَهُ بِقُرْبِ قِرَانِكَ. وَأَذْهَشَ الْخَبَرُ مِيسُونُ، وَأَخْبَرَ عَمَّاكَ أَنَّ رُوْتِشْسْتَرِيتَزَوَّجَ مِنْ أُخْتِهِ فَاثَرَعَجَ عَمَّاكَ، وَأَرْسَلَ مِيسُونُ إِلَى إِنْجِلْتَرَا لِإِقَافِ هَذِهِ الزَّيْجَةِ الْمُحَرَّمَةِ. وَقَدْ لَجَأَ إِلَيَّ مِيسُونُ فِي لَنْدَنَ بِصِفَتِي مُحَامِيًا يَطْلُبُ مِنِّي الْمُسَاعَدَةَ. وَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى وُصُولِنَا قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

«كَانَ عَمَّاكَ مَرِيضًا جَدًّا عِنْدَمَا تَرَكَهُ مِيسُونُ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ وَاثَاهُ الْأَجَلُ. وَالْأَفْضَلُ لَكَ أَنْ تَبْقَى فِي إِنْجِلْتَرَا حَتَّى نُوَافِيكَ بِأَنْبَاءِ أُخْرَى

عَنْهُ. « ثُمَّ التَفَتَ إِلَى مَيْسُونٍ وَقَالَ: «أَرَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ بَقَائِنَا هُنَا الْآنَ. «
وَأَسْرَعَ مَيْسُونُ بِالرَّدِّ قَائِلًا: «لَا، لَا فَائِدَةَ قَطُّ؛ فَلَنَنْصَرِفَ بِأَسْرَعِ مَا
يُمْكِنُ. كَمْ أَمَقْتُ هَذَا الْمَكَانَ اللَّعِينُ؟»
انْصَرَفَ الْجَمِيعُ وَصِرْتُ وَحْدِي. حِينَئِذٍ فَقَطُّ أَدْرَكْتُ فَظَاعَةَ الْمَوْقِفِ،
وَكَادَ قَلْبِي يَتَمَزَّقُ مِنْ شِدَّةِ الْحُزَنِ وَالْأَلَمِ. وَعُدْتُ إِلَى غُرْفَتِي، وَأَوْصَدْتُ
الْبَابَ، وَجَلَسْتُ أَحَاوِلُ أَنْ أَفَكِّرَ. وَبِالرَّغْمِ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ
وَالْأَسَى، كَانَ دَمْعِي عَصِيًّا، وَكَأَنَّمَا كَانَ مُدَّخَرًا لِلْأَيَّامِ الْمُقْبِلَةِ، وَالْمُسْتَقْبَلِ
الْمَجْهُولِ الْمُظْلِمِ.

الفصل الرابع والعشرون

جَلَسْتُ فِي حُجْرَتِي وَحِيدَةً حَزِينَةً، وَكَأَنِّي أَصْبَحْتُ شَخْصًا آخَرَ.
بِالْأَمْسِ كَانَتْ جَيْنُ إِير تَتَطَلَّعُ إِلَى مُسْتَقْبَلِ مُشْرِقٍ، تَصِيرُ فِيهِ زَوْجَةً لِمَنْ
تُحِبُّ. أَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ أَصْبَحَتْ فَتَاةً مُحَطَّمَةً مُجَرَّدَةً مِنْ كُلِّ أَمَلٍ. لَمْ أَلَمْ
رُوثِشْتَرِ عَلَى مَا حَدَثَ لِي. فَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ إِيدَائِي. وَشَعَرْتُ
بِأَنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى نِهَايَةِ طَرِيقِ الْحَيَاةِ، وَتَمَنَيْتُ الْمَوْتَ. وَأَخِيرًا عَقَدْتُ
الْعَزْمَ عَلَى تَرْكِ ثُورْنْفِيلْد هُول لِلْأَبَدِ.

عِنْدَمَا أَقْبَلَ الْمَسَاءُ شَعَرْتُ بِالْوَهْنِ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَذَوَّقْتُ الطَّعَامَ مُنْذُ
الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ. وَسَادَ الْمَنْزِلَ صَمْتُ عَمِيقٍ حَتَّى تَخَيَّلْتُ أَنِّي وَحْدِي،
وَفَتَحْتُ الْبَابَ بِحَذَرٍ. فَاصْطَدَمْتُ بِشَخْصٍ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِذِرَاعَيْنِ
يُطَوِّقَانِي، وَسَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ رُوثِشْتَرِ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَخِيرًا
ظَهَرْتَ يَا جَيْنُ. لَقَدْ انْتَبَظْتُكَ طَوِيلًا، وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا، فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ
قَدْ أَلَمَ بِكَ مَكْرُوهٌ. لِمَاذَا لَمْ تَأْتِي إِلَيَّ؟ لِمَاذَا هَذَا الصَّمْتُ؟ أَفْضَلُ عِنْدِي
بِكَثِيرٍ أَنْ تَصْرُخِي وَتَغْضَبِي. فَقَدْ كَذَبْتُ عَلَيْكَ يَا جَيْنُ، وَلَكِنْ أَقْسِمُ لَكَ
إِنِّي لَمْ أَقْصِدْ إِيدَاءَكَ. إِنِّي أَحْبَبْتُكَ يَا جَيْنُ، أَحْبَبْتُكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِي، وَبِكُلِّ
جَوَارِحِي، وَأَظُنُّكَ تَعْرِيفِينَ ذَلِكَ. فَهَلْ لِي أَنْ أَطْمَعَ فِي صَفْحِكَ عَنِّي؟»
كُنْتُ قَدْ صَفَحْتُ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ كَلِمَاتِهِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَصَارِحْهُ بِذَلِكَ.
قُلْتُ: «إِنِّي مُتْعَبَةٌ وَفِي حَاجَةٍ لِقَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ.»

حَمَلَنِي، وَهَبَطَ إِلَى حُجْرَةِ الْمَكْتَبَةِ، وَأَعْطَانِي قَلِيلًا مِنْ عَصِيرِ الْبُرْتُقَالِ، فَشَرِبْتُهُ وَبَدَأْتُ أَسْتَرِدُّ بَعْضَ قُوَّتِي.

جَلَسَ بِجَانِبِي وَأَخَذَ يُلَاطِفُنِي، وَلَكِنِّي أَشَحْتُ بِوَجْهِهِ عَنْهُ، فَقَالَ: «يَا إِلَهِي، هَلْ تَعْتَقِدِينَ أَنَّ بَرْتَا مَيُسُّونَ زَوْجَتِي، وَأَنَّهَا أَحَقُّ مِنْكَ بِحُبِّي وَحَنَانِي؟ لَا يَا جِين، أَقْسِمُ لَكَ إِنَّهَا لَيْسَتْ زَوْجَتِي، وَسَتَكُونِينَ أَنْتِ زَوْجَتِي وَتَحْمِلِينَ اسْمِي. فَلَنَرَحَلَ مِنْ هُنَا وَنَعِشَ فِي جَنُوبِ فَرْنَسَا. إِنَّ لِي بَيْتًا هُنَاكَ، وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَبْدَأَ هُنَاكَ حَيَاةً جَدِيدَةً هَانِئَةً.»

قُلْتُ: «وَلَكِنَّ زَوْجَتَكَ مَوْجُودَةٌ يَا سَيِّدِي، وَلَقَدْ أَخْبَرْتَنَا بِذَلِكَ أَنَّكَ أَنْتَ نَفْسُكَ هَذَا الصَّبَاحَ.»

قَالَ وَقَدْ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ: «قُولِي لِي صَرَاخَةً يَا جِين إِنَّكَ لَمْ تُحِبِّينِي، وَلَمْ يَكُنْ هَدْفُكَ إِلَّا أَنْ تُصْبِحِي لِي زَوْجَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ الْآنَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتِ أَنِّي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أَكُونَ لَكَ زَوْجًا، تُشِيحِينَ بِوَجْهِكَ عَنِّي وَلَا تُرِيدِينَني.»

تَأَثَّرْتُ مِنْ كَلِمَاتِهِ وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ انْهَمَرَتْ دُمُوعِي وَقُلْتُ: «إِنِّي أُحِبُّكَ. أُحِبُّكَ الْآنَ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أُحِبُّكَ قَبْلًا. وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَدْفِنَ هَذَا الْحُبَّ دَاخِلَ صَدْرِي، وَلِيَكُنْ هَذَا آخِرَ حَدِيثٍ يَجْمَعُ بَيْنَنَا.»

صَرَخَ مُخْتَجًّا: «مَاذَا تَقُولِينَ يَا جِين؟ لِمَ لَا نَبْقَى مَعًا مَا دُمْتُ أُحِبُّكَ، وَمَا دُمْتُ أَنْتِ تُحِبِّينِي؟»

قُلْتُ: «أَوَاهُ يَا سَيِّدِي، أَلَا تَرَى مَعِيَ ضَرُورَةَ رَحِيلِي مِنْ هُنَا.»

قال: «بلى أرى ذلك، وَلَكِنْ لِنَرْحَلْ مَعًا وَنَبْعَثْ بِأَدِيلٍ إِلَى مَدْرَسَةٍ
داخليّةٍ، وَنُوَصِّدُ أَبْوَابَ ثُورْنْفِيلْد هُوْلَ إِلَى الْأَبَدِ. وَسَأُكَلِّفُ جَرِيْسَ بُوْل
بِرعاية مَنْ تُسَمُّونها زَوْجَتِي، وَنَرْحَلْ مَعًا إِلَى فَرَنْسا.



«اسْمَحِي لِي أَنْ أُسَرِّدَ عَلَيْكَ قِصَّتِي ثُمَّ أَصْدِرِي حُكْمَكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَنْ أُطِيلَ عَلَيْكَ. كَانَ لِي أَخٌ أَكْبَرُ مِنِّي، وَكَانَ وَالِدِي شَغُوفًا بِجَمْعِ الْمَالِ يُفَضِّلُهُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فِي الْعَالَمِ، وَلَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ تُوزَعَ ثَرْوَتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَتَرَكَهَا كُلَّهَا لِأَخِي. وَرَاحَ يُدَبِّرُ لِي طَرِيقَةً يُؤَمِّنُ بِهَا مُسْتَقْبَلِي أَيْضًا. كَانَ لَهُ صَدِيقٌ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ يُقِيمُ فِي جُزْرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ، وَلِهَذَا الصَّدِيقِ بِنْتُ وَوَلَدَانِ. وَسَمِعَ أَنَّهُ يَنْوِي أَنْ يَمْنَحَ ابْنَتَهُ مَبْلَغَ ثَلَاثِينَ أَلْفِ جُنِيهِ عِنْدَ زَوَاجِهَا. وَرَأَى وَالِدِي الْفُرْصَةَ سَانِحَةً، فَأَرْسَلَنِي إِلَى جُزْرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ - عِنْدَمَا بَلَغْتُ الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِي - دُونَ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ نِيَّتِهِ. وَهُنَاكَ التَّقَيْتُ بِالْعُرُوسِ - بَرْتَا مَيْسُون - الَّتِي اخْتَارَهَا لِي. وَكَانَتْ حَقًّا امْرَأَةً جَمِيلَةً، وَقَدْ رَأَيْتُهَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَلَكِنِّي لَمْ أَخْتَلِ بِهَا وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ فَقَدْ كَانَتْ دَائِمًا مُحَاطَةً بِالْمُعْجَبِينَ وَأَصْبَحْتُ أَحَدَهُمْ. بَدَا لِي أَنْ أُسَرِّتَهَا تُعَامِلُنِي مُعَامَلَةً خَاصَّةً، وَتَخَيَّلْتُ أَنَّ بَرْتَا تُحِبُّنِي وَأَنَا أُحِبُّهَا، وَتَمَّ زَوَاجُنَا بِسُرْعَةٍ.

«لَمْ يَكُنْ حُبًّا حَقِيقِيًّا، فَقَدْ كُنْتُ شَابًّا طَائِشًا. وَلَمْ أَقَابِلْ أُمَّهَا قَطُّ، وَظَنَنْتُ أَنَّهَا مُتَوَفَاةٌ، وَلَكِنِّي عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهَا كَانَتْ مَجْنُونَةً وَكَذَلِكَ كَانَ أَخُوهَا الثَّانِي.

«كَانَتْ عَائِلَتِي تَعْلَمُ كُلَّ ذَلِكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ شَيْئًا حَتَّى حَدَّثَ مَا حَدَّثَ. كَانَ كُلُّ مَا اهْتَمَمْتُ بِهِ أُسَرِّتِي هُوَ حُصُولِي عَلَى مَبْلَغِ الثَّلَاثِينَ أَلْفِ جُنِيهِ.

«اشْتَدَّ غَضَبِي عِنْدَمَا اكْتَشَفْتُ الْمَكِيدَةَ الدَّنِيَّةَ، وَلَنْ أَنْسَى قَطُّ

ما عَانَيْتُهُ طَوَالَ الْأَرْبَعِ السَّنَوَاتِ الْأُولَى مِنْ حَيَاتِي الزَّوْجِيَّةِ. كَانَ كُلُّ مَا تَفْعَلُهُ أَوْ تَقُولُهُ زَوْجَتِي سُرًّا. وَأَخَذَ جُنُونُهَا يَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

«فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، مَاتَ وَالِدِي وَشَقِيقِي، وَأَصْبَحْتُ غَنِيًّا، وَلَكِنِّي لَمْ أَهْنَأُ بِالْعَيْشِ. فَقَدْ أَثْبَتَ الْأَطِبَاءُ أَنَّ زَوْجَتِي مَجْنُونَةٌ حَقًّا، وَلَا أَمَلٌ فِي شِفَائِهَا، وَلَكِنِّي لَمْ أَقْدِرْ عَلَى تَرْكِهَا. سَيِّئَتُ الْحَيَاةَ، وَتَمَنَّيْتُ الْمَوْتَ. وَذَاتَ يَوْمٍ، أَخَذْتُ بُنْدُقِيَّتِي وَخَرَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ نَاقِيًا الْإِنْتِحَارَ. كَانَ الْجَوُّ حَارًّا وَعَاصِفًا، وَلَكِنْ فِي لَحْظَةٍ خُرُوجِي هَدَّاتِ الرِّيحُ وَهَدَّاتُ مَعَهَا سَوَرَتِي (شِدَّةُ غَضَبِي) وَبَدَأْتُ أَفْكِّرُ. قَرَّرْتُ أَنْ أَعُودَ إِلَى إِنْجِلْتِرَا، وَأَتْرِكَ زَوْجَتِي فِي ثُورْنْفِيلْدِ تَحْتَ رِعَايَةِ مَنْ يَعْتَنِي بِهَا، بَيْنَمَا أَطُوفُ أَرْجَاءَ الْعَالَمِ مُحَاوِلًا أَنْ أَنْسِيَ هُمُومِي. وَلَمْ يَكُنْ فِي إِنْجِلْتِرَا مَنْ يَعْلَمُ بِخَبَرِ زَوَاجِي، فَقَدْ خَجَلَ وَالِدِي أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ اخْتَارَ لِابْنِهِ زَوْجَةً مَجْنُونَةً!

«جِئْتُ إِلَى هُنَا، وَخَصَّصْتُ لَزَوْجَتِي الطَّابِقَ الثَّلَاثَ مِنْ ثُورْنْفِيلْدِ هُولٍ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِبُجُودِهَا غَيْرُ الدُّكْتُورِ كَارْتِر، وَجَرِيسِ بُوُولِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى رِعَايَتِهَا. وَكُنْتُ أَخَافُ لَوْ عَلِمَ النَّاسُ بِبُجُودِهَا أَنْ يَرْفُضَ الْخَدْمَ وَالْعُمَّالَ الْعَمَلَ عِنْدِي، لِذَا كَتَمْتُ السِّرَّ، وَرُحْتُ أَجُوبُ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا أَبْحَثُ عَنِ امْرَأَةٍ فَاضِلَةٍ عَاقِلَةٍ.»

قُلْتُ: «وَلَكِنَّكَ يَا سَيِّدِي لَمْ تَكُنْ حُرًّا طَلِيقًا حَتَّى تَبْحَثَ عَنِ امْرَأَةٍ أُخْرَى.»

قَالَ: «رُبَّمَا، وَلَكِنِّي فِي قَرَارَةٍ نَفْسِي كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّي كَذَلِكَ.

وَعَزَمْتُ عِنْدَمَا أَجِدُ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَبْحَثُ عَنْهَا، أَنْ أَخْبِرَهَا بِكُلِّ أُمُورِي، أَمَلًا
أَنْ تَقْبَلَنِي بَعْدَ أَنْ تُدْرِكَ حَقِيقَةَ مَوْقِفِي.

سَأَلْتُ: «وَهَلْ وَجَدْتَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ؟ وَمَاذَا كَانَ رَأْيُهَا؟»

أَجَابَ: «نَعَمْ وَجَدْتُهَا، وَأَنْتِ تَعْلَمِينَ ذَلِكَ. أَمَّا رَأْيُهَا فَلَا أَعْرِفُهُ.»
ثُمَّ اسْتَطَرَدَ فِي كَلَامِهِ قَائِلًا: «أَمْضَيْتُ عَشْرَ سِنِينَ أَبْحَثُ عَنْهَا، وَكَانَتْ
سَنَوَاتٍ مُضْنِيَّةً. وَأَخِيرًا عُدْتُ فِي يَنَائِرِ الْمَاضِي إِلَى ثُورْنْفِيلْد يَأْسًا حَزِينًا،
وَقَابَلْتُ الْمَرْأَةَ الَّتِي كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهَا عَلَى عَتَبَةِ بَابِي. وَالْبَاقِي أَنْتِ تَعْرِفِينَهُ
يَا جِينِ.»

قُلْتُ: «بِرَبِّكَ لَا تُكْمِلْ، فَلَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.»

قَالَ: «أَنْتِ عَلَى حَقٍّ. وَالْآنَ وَقَدْ عَرَفْتَ حِكَايَتِي، قُولِي إِنَّكَ سَتَصَفِّحِينَ
عَنِّي وَأَنَّكَ سَتَبْقِينَ مَعِي، وَتَقْفِينَ دَائِمًا إِلَى جَانِبِي.»

كُنْتُ بَيْنَ نَارَيْنِ، وَلَمْ أَعْرِفْ بِمَاذَا أُجِيبُ. كَانَ حُبِّي الشَّدِيدُ لَهُ يَدْفَعُنِي
إِلَى قَبُولِ مَا يَعْرِضُهُ وَالْبَقَاءُ مَعَهُ. وَكَانَ حِرْصِي عَلَى الْمَبْدَأِ الَّذِي يُحَرِّمُ
ذَلِكَ الْبَقَاءَ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ.

قُلْتُ أَخِيرًا: «يَا سَيِّدُ رُوْتِشِسْتِر، مِنَ الْمُحَالِ أَنْ أَبْقَى هُنَا، وَلَيْكُنِ اللَّهُ فِي
عَوْنِكَ.» وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ الْبَابِ، وَأَنَا أَحْسُ بِقَلْبِي يَكَادُ يَتَمَزَّقُ حُزْنًا وَأَلَمًا.

الفصل الخامس والعشرون

نِمْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَوْمًا عَمِيقًا، عَلَى غَيْرِ مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ، وَاسْتَيْقَظْتُ مُبَكَّرَةً. وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى مُغَادَرَةِ ثُورْنْفيلد، وَتَرْكِ السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتِر بِأَسْرَعٍ مَا يُمَكِّنُ. وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَحَدٌ، أَخَذْتُ مَعِيَ قَلِيلًا مِنَ النُّقُودِ، وَبَعْضَ الطَّعَامِ وَتَرَكْتُ الدَّارَ مُسْرِعَةً.

كَانَ الْجَوْ صَحْوًا جَمِيلًا، فَسَلَكْتُ الطَّرِيقَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى بَلَدَةٍ لَا يَعْرِفُنِي فِيهَا أَحَدٌ. وَلَا يَكُونُ فِيهَا لِلْسَّيِّدِ رُوْتِشِسْتِر أَصْدِقَاءٌ.

بَعْدَ بُرْهَةٍ أَقْبَلْتُ نَحْوِي مَرْكَبَةً، فَنَادَيْتُ سَائِقَهَا وَتَوَقَّفَ. وَصَعِدْتُ إِلَيْهَا، وَأَعْطَيْتُ السَّائِقَ كُلَّ مَا مَعِيَ مِنْ نُقُودٍ - مَبْلَغَ عِشْرِينَ شِلْنًا - وَاتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ يَحْمِلَنِي مَعَهُ الْمَسَافَةَ الَّتِي تُوَازِي مَا دَفَعْتُهُ مِنْ أَجْرِ.

سَرْنَا مُدَّةَ يَوْمَيْنِ، وَأَنْزَلَنِي السَّائِقُ وَسَطَ أَرْضٍ مُنْبَسِطَةٍ مَزْرُوعَةٍ. وَقَضَيْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ فِي الْخَلَاءِ أَتَطَّلُعُ إِلَى النُّجُومِ، ثُمَّ قُمْتُ مُبَكَّرَةً عِنْدَ بُزُوغِ الشَّمْسِ. وَسِرْتُ فِي الطَّرِيقِ الْمُتَّجِهَةِ شَرْقًا، وَأَنَا أَجْهَلُ مَصِيرِي. وَكُنْتُ خَالِيَةً الْوِفَاضِ مِنْ نُقُودٍ أَوْ زَادٍ، وَكَمْ تَمَنَيْتُ الْمَوْتَ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ لَا يَأْتِي بِالتَّمَنِّي. وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَعِيشَ، لِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ.

سِرْتُ طَوِيلًا، وَوَصَلْتُ إِلَى قَرْيَةٍ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهَا مَا يُشَجِّعُنِي عَلَى الْبَقَاءِ، فَتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ فِي طَرِيقِي. وَقَابَلْتُ مُزَارِعًا اقْتَسَمَ مَعِيَ عِشَاءَهُ الْمُكُونَنَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْخُبْزِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ تَنَاوَلْتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَسِرْتُ فِي طَرِيقِي، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ بَارِدَةً وَالْأَمْطَارُ تَهْطِلُ، وَشَعَرْتُ
بِالْإِعْيَاءِ.

ظَنَنْتُ أَنِّي فِي حُلْمٍ حِينَ لَاحَ لِي نُورٌ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَكِنِّي اتَّجَهْتُ



نَحْوَهُ. وَوَصَلْتُ إِلَى مَنْزِلٍ صَغِيرٍ مُنْعَزِلٍ كَانَ النُّورُ يَنْبُعُ مِنْهُ، وَاقْتَحَمْتُ حَديقَةَ الْمَنْزِلِ. وَرَأَيْتُ مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ سَيِّدَتَيْنِ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ، وَمَعَهُمَا خَادِمَةٌ عَجُوزٌ، وَكَانَتِ السَّيِّدَتَانِ تَقْرَأَنِ.

قَرَعْتُ الْبَابَ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ كَلْبٍ يَنْبُحُ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ فَتَحَتْ لِي الْبَابَ الْعَجُوزُ وَسَأَلَتْ: «مَاذَا تُرِيدِينَ؟ لِمَاذَا أَنْتِ وَحْدَكِ خَارِجَ بَيْتِكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ؟»

أَجَبْتُ: «أَرْجوكِ، إِنِّي غَرِيبَةٌ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ وَلَيْسَ لِي مَأْوَى. هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ أَقْضِيَ لَيْلَتِي هُنَا؟ وَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَكَرَّمِي عَلَيَّ بِكِسْرَةِ خُبْزٍ؟»
قَالَتْ: «سَأُعْطِيكِ الْخُبْزَ، أَمَّا الْفِرَاشُ فَلَا. مَنْ أَذْرَانِي مَنْ تَكُونِينَ؟»
وَأَحْضَرَتْ لِي قِطْعَةً خُبْزٍ، ثُمَّ أَغْلَقَتْ الْبَابَ فِي وَجْهِي قَائِلَةً: «انْصَرِفِي مِنْ هُنَا وَإِلَّا أَطْلَقْتُ عَلَيْكِ الْكَلْبَ.»

قُلْتُ أَحَدْتُ نَفْسِي: «لَمْ يَبْقَ لِي سِوَى الْمَوْتِ.» وَلَمْ أَكُنْ قَادِرَةً عَلَى الْحَرَكَةِ مِنْ شِدَّةِ الْإِغْيَاءِ فَتَوَسَّدْتُ السُّلَّمِ. عِنْدَيْدِ، سَمِعْتُ صَوْتَ رَجُلٍ يَقُولُ: «حَاشَا أَنْ تَمُوتِي عَلَى عَتَبَةِ بَابِي.» وَقَرَعَ الْبَابَ بِشِدَّةٍ قَائِلًا: «أَسْرِعِي يَا حَنَّةَ وَافْتَحِي الْبَابَ، هُنَا امْرَأَةٌ مُسْكِينَةٌ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ.»
أَجَابَتْ حَنَّةَ: «أَعْلَمُ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي، وَقَدْ أَمَرْتُهَا أَنْ تَنْصَرِفَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ الْأَشْرَارِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَعْوَانٌ.»

قَالَ: «لَا يَا حَنَّةَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَتْرُكَهَا هَكَذَا عَلَى عَتَبَةِ بَابِنَا. هَلُمَّيْ

سَاعِدِيهَا عَلَى الدُّخُولِ.»

عِنْدَمَا دَخَلْنَا، أَقْبَلْتُ عَلَيْنَا الشَّابَّتَانِ وَسَأَلْتُهُ إِحْدَاهُنَّ: «مَنْ هَذِهِ يَا سَنُجُن؟»

أَجَابَ: لَا أَعْلَمُ يَا دَيَانَا.»

قَالَتِ الْأُخْرَى: «مِسْكِينَةٌ، هَلْ هِيَ جَائِعَةٌ وَمُرْهَقَةٌ فَقَطُّ، أَمْ هِيَ مَرِيضَةٌ؟ إِنَّهَا شَاحِبَةُ اللَّوْنِ وَضَعِيفَةٌ جِدًّا.»

قَالَ الرَّجُلُ: «أَظَنُّهَا فَقَطُّ جَائِعَةٌ وَمُرْهَقَةٌ. أَحْضِرِي لَنَا لَبَنًا وَخُبْزًا يَا حَنَّةَ.»
أَخَذْتُ اللَّبْنَ وَالْخُبْزَ وَجَلَسْتُ قُرْبَ الْمِدْفَأَةِ. وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالْحَيَاةِ
تَدَبُّ فِي أَوْصَالِي. وَبَدَأَ الرَّجُلُ يُوجِّهُ لِي الْأَسْئَلَةَ: مَنْ أَنْتِ؟ أَيْنَ تُقِيمِينَ؟
أَيْنَ عَائِلَتُكِ؟ مَنْ هُمْ أَصْدِقَاؤُكَ؟ إلخ.

كُنْتُ مُتْعَبَةً جِدًّا، فَرَجَوْتُهُ أَنْ يُمَهِّلَنِي، وَوَعَدْتُ أَنْ أَقْصَّ عَلَيْهِ حِكَايَتِي
فِيمَا بَعْدُ.

وَأَخَذَتْنِي حَنَّةَ إِلَى الْفِرَاشِ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ خِلَالَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَنَامُ فِيهَا
عَلَى فِرَاشٍ مُرِيحٍ.

الفصل السادس والعشرون

مَضَتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَأَنَا عَاجِزَةٌ عَنِ الْحَرَكَةِ أَوْ الْكَلَامِ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ وَأُذِرُكَ مَا حَوْلِي. وَكَانَتْ حَنَّةُ الْخَادِمَةِ تَدْخُلُ عَلَيَّ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، كَذَلِكَ حَضَرَتِ الْأُخْتَانِ مَارِي وَدَيَانَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِيُزَيَّرَتِي. أَمَّا الْأَخُ سَنْجُنُ فَقَدْ حَضَرَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَقَدْ عَلِمْتُ مِنْهُ أَنِّي لَسْتُ مَرِيضَةً، وَإِنَّمَا مُرَهَقَةٌ فَقَطُ وَتَلَزَمُنِي الرَّاحَةُ.

فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ نَهَضْتُ مِنَ الْفِرَاشِ، وَذَهَبْتُ إِلَى حَنَّةَ فِي الْمَطْبَخِ، وَكَانَتْ تَصْنَعُ خُبْزًا. وَلَمْ تُسَرَّ بِرُؤْيَايَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ اكْتَسَبْتُ صَدَاقَتَهَا، وَأَخَذْنَا نَتَجَادَبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ. وَعَلِمْتُ مِنْهَا أَنَّ الْبَيْتَ يُسَمَّى مُورِ هَاوُسَ، وَهُوَ مَلِكٌ لِأُسْرَةِ رِيْقَرْز. وَأَنَّ السَّيِّدَ رِيْقَرْزَ قَدْ تُوْفِّيَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَسَابِيْعَ، وَكَانَ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَجَمُّعِ الْأُسْرَةِ هُنَاكَ.

كَانَ الْأَخُ سَنْجُنُ مُعَلِّمًا، أَمَّا دَيَانَا وَمَارِي، فَتَعْمَلَانِ مُرَبِّيَتَيْنِ عِنْدَ أُسْرَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ فِي جَنُوبِ إِنْجِلْتَرَا.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَنَاوَلْتُ الشَّايَ مَعَهُمْ فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، وَاسْتَأْنَفَ الْأَخُ أَسْئَلَتَهُ، وَاقْتَنَعَ بِصِدْقِي وَأَمَانَتِي، وَوَعَدَ بَأَنْ يَجِدَ لِي عَمَلًا. وَنَشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَارِي وَدَيَانَا صَدَاقَةٌ مَتِينَةٌ، أَمَّا شُعُورِي نَحْوَ سَنْجُنُ فَكَانَ مُخْتَلِفًا. كَانَ رَجُلًا جَادًّا فِي عَمَلِهِ دَوُوبًا عَلَى الْقِيَامِ بِوَاجِبِهِ، شَغُوفًا بِمَدِّ يَدِ الْعَوْنِ لِمَنْ يَحْتَاجُهُ. وَقَدْ شَعَرْتُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا عَنْ حَيَاتِهِ، أَوْ قَانِعًا بِمَا قُدِّرَ لَهُ.

مَضَى عَلَيَّ شَهْرَانِ وَأَنَا أَقِيمُ مَعَ أُسْرَةِ رِيْقَرَز، حَتَّى حَانَ مَوْعِدُ عَوْدَةِ
مَارِي وَدَيَانَا لِعَمَلِهِمَا، وَكَذَلِكَ عَوْدَةُ سَنْجُنَ لِبَيْتِهِ فِي الْقَرْيَةِ. وَبَدَأَ الْقَلْقُ
يُساوِرُنِي، كُنْتُ أَفْكُرُ فِي مُسْتَقْبَلِي. وَذَاتَ صَبَاحٍ، حَدَّثْتُ سَنْجُنَ بِشَأْنِ
مُشْكِلَتِي، فَقَالَ: «لَقَدْ وَجَدْتُ لَكَ عَمَلًا قَدْ لَا يَرُوقُكَ، فَأَخْبِرْنِي عَنْ
رَأْيِكَ بِصِرَاحَةٍ. تَبَرَّعَ أَحَدُ الْأَغْنِيَاءِ بِمَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ لِإِقَامَةِ مَدْرَسَةٍ بَنَاتٍ
جَدِيدَةٍ فِي الْقَرْيَةِ، وَسَيَكُونُ بِهَا مَنْزِلٌ صَغِيرٌ مُكَوَّنٌ مِنْ حُجْرَتَيْنِ لِسَكْنِ
نَاضِرَةِ الْمَدْرَسَةِ. فَهَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَقُومِي بِعَمَلِ النَّاضِرَةِ؟» وَقَبِلْتُ الْعَرْضَ
شَاكِرَةً.

فِي آخِرِ يَوْمٍ لَنَا فِي مُورْ هَاوَس، وَصَلَتْ رِسَالَةٌ إِلَى سَنْجُنَ نَاوَلَهَا لِأُخْتِيهِ
بَعْدَ أَنْ قَرَأَهَا.

قَالَتْ دَيَانَا بَعْدَ قِرَاءَةِ الرِّسَالَةِ: «أَخِيرًا مَاتَ الْخَالُ جُونُ.»
أَجَابَ سَنْجُنُ: «نَعَمْ مَاتَ وَتَرَكَ ثَرَوَتَهُ لِشَخْصٍ آخَرَ.» وَبَدَتْ عَلَيْهِمْ
جَمِيعًا عِلَامَاتُ الْأَسَى.

قَالَتْ مَارِي: «كَمَا عِشْنَا بِدُونِ مُسَاعَدَتِهِ فِي الْمَاضِي، يُمَكِّنُنَا أَنْ نَعِيشَ
فِي الْمُسْتَقْبَلِ.»

بَعْدَ أَنْ تَرَكَنَا سَنْجُنَ قَالَتْ لِي دَيَانَا: «لَا تَظُنِّيْنَا عَدِيمِي الشُّعُورِ يَا جِينُ.
كَانَ الْخَالُ جُونُ شَقِيقَ وَالِدَتِي، وَقَدْ تَشَاجَرَ مِنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ مَعَ وَالِدِي
الَّذِي فَقَدَ ثَرَوَتَهُ بِسَبَبِهِ. وَقَدْ جَمَعَ الْخَالُ جُونُ ثَرَوَةً طَائِلَةً، وَكَانَ وَالِدِي
يَأْمُلُ أَنْ يَتَرَكَ لَنَا هَذِهِ الثَّرْوَةَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لِأَنَّهُ بِلَا أَوْلَادٍ. وَعِشْنَا جَمِيعًا عَلَى
ذَلِكَ الْأَمَلِ، وَهَذَا قَدْ مَاتَ الْخَالُ جُونُ وَتَرَكَ ثَرَوَتَهُ، وَلَكِنْ لِشَخْصٍ آخَرَ
لَا نَعْرِفُهُ.»

الفصل السابع والعشرون

أخيراً، أَصْبَحْتُ رَبَّةَ بَيْتٍ أُمْتَلِكُهُ وَحْدِي. وَكَانَ عَدَدُ تَلْمِيذَاتِي فِي الْمَدْرَسَةِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ عِشْرِينَ تَلْمِيذَةً، كُلُّهُنَّ يَجْهَلْنَ الْكِتَابَةَ، وَثَلَاثُ فَقَطُ مِنْهُنَّ يَعْرِفْنَ الْقِرَاءَةَ. وَلَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ سَهْلاً، فَكَثِيرَاتٌ مِنْهُنَّ كُنَّ وَقِحَاتٍ عَنِيدَاتٍ، بَيْنَمَا أَقْبَلَ بَعْضُهُنَّ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالدراسةِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ. لَمْ أَكُفَّ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي السَّيِّدِ رُوْتِشِسْتَر، وَكَثِيراً مَا كُنْتُ أَبْكِي وَأَنَا وَحْدِي فِي الْمَنْزِلِ فِي الْمَسَاءِ. وَلَكِنِّي لَمْ أَندَمْ قَطُّ عَلَى قَرَارِي بِتَرْكِ ثُورْنْفيلد هُول.

بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ، بَدَأَ عَمَلِي فِي الْمَدْرَسَةِ يُثْمِرُ، وَأَقْبَلَتِ الْبَنَاتُ عَلَى الدَّرَاسَةِ بِرِضًا وَاقْتِنَاعٍ. وَأَخَذْتُ أَلْقَنُ بَعْضَهُنَّ دُرُوسًا فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ. وَدَعَتْنِي بَعْضُ الْعَائِلَاتِ لِرِزَارَتِهَا، وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالِاسْتِقْرَارِ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ. كُنْتُ وَسَنَجُنُ نَتَقَابِلُ كَثِيراً، فَقَدْ كَانَ يَحْضُرُ لِلْمَدْرَسَةِ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ لِلتَّدْرِيسِ، وَأَحْيَانًا كَانَ يَزُورُنِي فِي مَنْزِلِي فِي الْمَسَاءِ. وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ فِي شَتَّى الْمَسَائِلِ، وَمَشَاكِلِ الْمَدْرَسَةِ وَالْقَرْيَةِ، وَأَحْيَانًا كَانَ يُحَدِّثُنِي عَنْ نَفْسِهِ. وَكَانَ مَجَالُ الْعَمَلِ أَمَامَهُ فِي بَلَدِهِ مُتَّسِعًا، وَقُرْبُهُ مِنْ أُخْتِيهِ مَرْغُوبًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

حَضَرَ ذَاتَ مَسَاءٍ وَكُنْتُ مُنْهَمِكَةً فِي رَسْمٍ وَتَلْوِينِ لَوْحَةٍ. فَوَقَفَ

يُدَقِّقُ النَّظَرَ فِيهَا. وَبَعْدَ أَنْ جَلَسَ بِجَوَارِي نِصْفِ سَاعَةٍ، نَهَضَ لِيَنْصَرِفَ.
وَلَمَّا مَرَّ بِاللَّوْحَةِ تَوَقَّفَ، وَقَطَعَ مِنْهَا رُكْنًا صَغِيرًا أَخَذَهُ مَعَهُ، وَانْصَرَفَ دُونَ
أَنْ يُفَسِّرَ عَمَلَهُ وَدُونَ أَنْ أَسْأَلَهُ تَفْسِيرًا، وَكُنْتُ قَدْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَرَاهُ يَقُومُ
بِأَعْمَالٍ غَرِيبَةٍ.

الفصل الثامن والعشرون

هَبَّتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ. وما إنْ أَصْبَحَ الصَّبَاحُ، حَتَّى كَانَتْ
الْأَرْضُ مُغَطَّاةً بِطَبَقَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الثَّلْجِ. وَبَعْدَ انْتِهَاءِ الدَّرَاسَةِ، جَلَسْتُ فِي
دَارِي قُرْبَ الْمِدْفَأَةِ أَقْرَأُ كِتَابًا. مَرَّتْ عَلَيَّ سَاعَةٌ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ سَمِعْتُ
طَرَقًا عَلَى الْبَابِ. وَكَانَ الْقَادِمُ سَنَجُنْ، فَسَأَلْتُهُ بِقَلَقٍ: «مَا الَّذِي أَتَى بِكَ
فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ وَفِي هَذَا الْجَوِّ الْبَارِدِ؟ لَعَلَّهُ خَيْرٌ، مَاذَا حَدَثَ؟»
«لَا شَيْءَ يَا جِين. شَعَرْتُ فَقَطُّ بِحَاجَتِي لِلْحَدِيثِ إِلَى صَدِيقٍ، بَعْدَ أَنْ
قَضَيْتُ الْيَوْمَ وَحْدِي.»

دَخَلَ وَجَلَسَ صَامِتًا، ثُمَّ أَخْرَجَ رِسَالَةً قَرَأَهَا بِإِمْعَانٍ وَأَعَادَهَا إِلَى جَبِيهِ
قَائِلًا: «أَمْسٍ اكْتَشَفْتُ شَيْئًا غَرِيبًا، وَعَدْتُ الْيَوْمَ لِتَوْضِيحِهِ لِي.»
لَمْ أَفْهَمْ مَاذَا يَعْنِي، وَبَقِيتُ صَامِتَةً، فَقَالَ: «الْأَفْضَلُ أَنْ أُبْدَأَ الْقِصَّةَ
مِنْ أَوَّلِهَا. مُنْذُ نَحْوِ عِشْرِينَ عَامًا وَقَعَ أَحَدُ الْأَشْخَاصِ فِي غَرَامِ فَتَاةٍ مِنْ
بَنَاتِ الْأَثْرِيَاءِ وَأَحَبَّتْهُ كَمَا أَحَبَّهَا، وَاتَّفَقَا عَلَى الزَّوْاجِ. غَيْرَ أَنَّ أُسْرَةَ الْفَتَاةِ
عَارَضَتْ هَذَا الزَّوْاجَ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدَ تَمَّ الزَّوْاجُ. وَلَكِنْ لِلْأَسَفِ،
تُوُفِّيَ الزَّوْجَانِ بَعْدَ سَتَتَيْنِ مِنْ زَوَاجِهِمَا، وَتَرَكََا وَرَاءَهُمَا طِفْلَةً صَغِيرَةً،
أَخَذَتْهَا خَالَتُهَا وَزَوْجُ خَالَتِهَا السَّيِّدُ رِيدَ لِتَعِيشَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمَا.

«لَا أَعْرِفُ كَيْفَ كَانَتْ حَيَاةُ تِلْكَ الصَّغِيرَةِ الْيَتِيمَةِ بَيْنَ أَوْلَادِ خَالَتِهَا،
وَهَلْ كَانَتْ حَيَاةً سَعِيدَةً أَمْ لَا. وَكُلُّ مَا أَعْرِفُهُ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ لِمَدْرَسَةٍ
لُوُودٍ، عِنْدَمَا بَلَغَتِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهَا. أَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ تَنْطَبِقَ تَفَاصِيلُ

هذه السيرة على تفاصيل سيرة حياتك يا جين؟ ولكن فلا تكمل. عندما بلغت الفتاة الثامنة عشرة من عمرها، تركت المدرسة لتعمل مدرسة خاصة لفتاة تدعى أديل فارينز في ثورنفيلد هول. «قلت: «أرجوك يا سنجن لا تكمل.»

قال: «لا، اسمعيني للنهاية. في ثورنفيلد هول طلب منها صاحب الدار السيد روثشستر الزواج، وقبلت. غير أن الزواج لم يتم، فقد ظهر أن للسيد روثشستر زوجة، وأن زوجته على قيد الحياة. لا أعلم ماذا فعل روثشستر بعد أن انكشف سره. أما الفتاة، فقد تركت ثورنفيلد بعد ذلك اليوم ولم يُعثر لها على أثر، بالرغم من كل المحاولات التي بذلها السيد روثشستر ليجدها. وقد أطلعني على كل هذه التفاصيل مُحام في لندن يُدعى بريجز. ألا ترين أنها قصة عجيبة يا جين؟»

سألته متلهفة: «بالله عليك خبرني، أين السيد روثشستر الآن؟ وكيف حاله؟ هل هو بخير؟»

أجاب سنجن: «أنا آسف، فقد سبق وقلت لك إنني لا أعرف عنه شيئاً. ولكن ألا تريد أن اسمع اسم بطة هذه القصة؟»

سألت: «هل كتب السيد بريجز إلى السيد روثشستر؟ هل ردَّ عليه السيد روثشستر؟»

كان كلُّ همي مُنصرفاً إلى معرفة أخبار السيد روثشستر. أجب سنجن: «نعم، كتب بريجز لروثشستر، ولكن الذي ردَّ على خطابه كانت سيده تدعى فيرفاكس.»

صَدَقْتُ مَخَافِي، وَتَأَكَّدْتُ أَنَّ السَّيِّدَ رُوثِشْتِرَ تَرَكَ ثُورْنْفِيلْدَ هُول
وَبَدَأَ حَيَاةَ التَّنْقُلِ وَعَدَمَ الْاسْتِقْرَارِ. مَسْكِينُ يَا إِدْوَاردُ! وَاسْتَمَرَّ سَنُجُنْ فِي
الْحَدِيثِ قَائِلًا: «حَيْثُ إِنَّكَ لَمْ تَسْأَلْنِي عَنِ اسْمِ الْفَتَاةِ فَسَأُخْبِرُكَ أَنَا بِهِ.»
أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ قِطْعَةً وَرَقٍ صَغِيرَةً وَنَاولَهَا لِي، فَوَجَدْتُ أَنَّهَا رُكْنُ
اللُّوْحَةِ الَّتِي كُنْتُ أَرْسُمُهَا وَعَلَيْهَا اسْمِي جِينِ إِير. ثُمَّ اسْتَطَرَدْتُ فِي الْحَدِيثِ
قَائِلًا:

«كَتَبَ لِي بَرِيْجَزُ يَسْأَلُنِي عَنْ جِينِ إِير، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ غَيْرَ جِينِ إِيُوتَ،
الاسْمَ الَّذِي عَرَفْتُكَ بِهِ. وَلَكِنِّي كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: مَنْ تَكُونِينَ؟
وَمَنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ أَنْتِ نَفْسُكِ جِينِ إِير، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»
قُلْتُ: «بَلَى أَنَا جِينِ إِير، وَلَكِنْ قُلْ لِي بِرَبِّكَ: إِذَا كَتَبْتُ لِلْسَّيِّدِ بَرِيْجَزُ
أَسْتَفْسِرُ عَنِ السَّيِّدِ رُوثِشْتِرَ، فَهَلْ يُوَافِينِي بِأَخْبَارِهِ؟»
قَالَ: «لَا أَظُنُّ ذَلِكَ يَا جِين. وَلَكِنْ دَعِينَا مِنْ رُوثِشْتِرَ فَعِنْدِي لَكَ أَخْبَارٌ
أَهَمُّ وَأَعْجَبُ. هَلْ تَعْلَمِينَ لِمَاذَا أَرْسَلَ لِي بَرِيْجَزُ خِطَابًا؟»
قُلْتُ: «لَا!»

قَالَ: «كَتَبَ لِيُخْبِرَنِي بِوَفَاةِ عَمِّكَ جُونِ إِير فِي مَادِيرَا وَأَصْبَحْتَ أَنْتِ
وَرِيشَةُ.»

قُلْتُ: «أَنَا؟»

قَالَ: «نَعَمْ، لَقَدْ تَرَكَ لَكَ مَبْلَغَ عِشْرِينَ أَلْفَ جُنِيَّةٍ.»

ذَهَلْتُ، وَلَمْ أُدْرِكْ مَا كَانَ يَقُولُ، فَقَدْ حَزَنْتُ جِدًّا عِنْدَ سَمَاعِ خَبَرِ وَفَاةِ عَمِّي. لَقَدْ كَانَ هُوَ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ مِنْ أُسْرَتِي الَّذِي اهْتَمَّ بِمَصِيرِي دُونَ أَنْ أَرَاهُ أَوْ يَرَانِي.

قَالَ سَنْجُنُ: «أَرَاكَ مُكْتَبَّةً، أَلَا تُرِيدِينَ هَذِهِ الثَّرْوَةَ؟»
قُلْتُ: «بَلَى أُرِيدُهَا.» وَلَمْ أُحَاوِلْ أَنْ أَفْصَحَ لَهُ عَنْ عَوَاطِفِي، فَهُوَ لَنْ يَفْهَمَهَا ثُمَّ سَأَلْتُهُ: «لِمَاذَا كَتَبَ لَكَ بَرِيْجُزُ يَا سَنْجُنُ؟»
قَالَ: «إِنَّهَا حَقًّا قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ، وَسَوْفَ أُحَدِّثُكَ عَنْهَا فِيمَا بَعْدُ.»
قُلْتُ: «أَوَدُّ أَنْ أَسْمَعَهَا الْآنَ، أَرْجُوكَ.»

قَالَ: «لَا بَأْسَ، هَلْ تَعْرِفِينَ أَنَّ اسْمِي بِالْكَامِلِ هُوَ: سَنْجُنُ إِيْرِيْغُزُ؟»
قُلْتُ: «لَا أَعْرِفُ ذَلِكَ.» وَأَدْرَكْتُ الْحَقِيقَةَ كُلَّهَا، وَلَكِنِّي تَرَكْتُهُ يُكْمِلُ بَقِيَّةَ حَدِيثِهِ.

قَالَ: «كَانَتْ أُمِّي مِنْ أُسْرَةِ إِيْرِيْغُزٍ وَلَهَا أَخَوَانِ، تَزَوَّجَ أَحَدُهُمَا الْآنِسَةَ جِين رِيدَ مِنْ غَيْشَسَهِيدَ، وَالْآخَرُ هُوَ جُونُ إِيْرِيْغُزٍ. وَكَتَبَ لِي بَرِيْجُزُ الْمُحَامِي - وَكِيْلًا عَنْ جُونِ إِيْرِيْغُزٍ - فِي أَغْطُسَ الْمَاضِي يُخْبِرُنِي بِوَفَاةِ خَالِي، وَيُعَلِّمُنِي بِأَنَّهُ تَرَكَ كُلَّ ثَرَوَتِهِ لِشَخْصٍ آخَرَ. وَمُنْذُ بَضْعَةِ أَسَابِيْعَ وَصَلَنِي مِنْهُ خِطَابٌ آخَرُ يَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ عَلَى ذَلِكَ الشَّخْصِ، وَلِلذَلِكَ تُصْبِحُ الثَّرْوَةُ لِي. ثُمَّ رَأَيْتُ اسْمَكَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي كُنْتُ تَرْسُمِينَهَا، وَعَلِمْتُ أَنَّكَ الشَّخْصَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْهُ بَرِيْجُزُ.»

انتهى حديثه، وحاول أن ينصرف فقلت: «ترى قليلاً حتى أرى الحقيقة بوضوح. هل كانت والدتك عمتي أنا، شقيقة أبي؟»

قال: «نعم.»

قلت: «كم أنا سعيدة يا سنجن، فقد وجدت أخيراً أهلاً يحبونني وأحبهم.»

ابتسم قائلاً: «حقاً إنك فتاة غريبة يا جين، منذ لحظة لم تبد عليك غير الكآبة، ولم تبتهجي عند سماع خبر الثروة التي آلت إليك. والآن يكاد الفرح يطيح بعقلك عند سماع خبر قرابتنا لك.»

قلت: «لا يمكنك أن تفهم مشاعري أو تقدرها. فأنت لم تقض حياتك وحيداً مثلي.»

تذكرت أن الثروة أصبحت لي وحدي، وفكرت في أولاد عمتي الثلاثة فقلت: «نحن أربعة، ولا بد أن نقسم الثروة بيننا بالتساوي.»

لم يوافقني سنجن في بادئ الأمر، ولكنه بعد جدال طويل اقتنع برأيي، وقبل انصرافه قال: «وماذا عن المدرسة يا جين؟ هل تغلق أبوابها منذ الغد؟»

قلت: «لا، سأظل أعمل بها حتى تجد من يخلفني.»

فشكرني على ذلك وانصرف.

الفصل التاسع والعشرون

لَمْ يَمْضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى كُنَّا قَدْ اقْتَسَمْنَا الثَّرْوَةَ فِيمَا بَيْنَنَا نَحْنُ الْأَرْبَعَةُ،
وَأَغْلَقْتُ الْمَدْرَسَةَ بِمُنَاسَبَةِ الْعَامِ الْجَدِيدِ، عَلَى أَنْ تَسْتَقْبَلَ النَّاطِرَةَ الْجَدِيدَةَ
بَعْدَ انْتِهَاءِ الْإِجَازَةِ.

وَاسْتَعْنَتْ كُلُّ مِنْ مَارِي وَدَيَانَا عَنِ الْعَمَلِ، وَعَادَتَا إِلَى بَيْتَيْهِمَا. وَأَمْضَيْتُ
مَعَهُمَا أُسْبُوعًا فِي مَرَحٍ وَسَعَادَةٍ، وَلَمْ يُشَارِكُنَا سَنَجُنْ مَرَحَنَا هَذَا، بَلِ
اعْتَبَرَهُ مَضِيعَةً لِلْوَقْتِ. وَلَمْ يَعُدْ يَشْغَلُهُ أَمْرِي الْآنَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ غَنِيَّةً،
كَمَا كَانَ يَشْغَلُهُ مِنْ قَبْلُ.

انْقَضَتْ الْإِجَازَةُ، وَبَقِيَ سَنَجُنْ مَعَنَا فِي مُورْ هَاوسٍ حَتَّى يَحِينَ مَوْعِدُ
سَفَرِهِ إِلَى الْهِنْدِ، حَيْثُ كَانَ يُزِمُّعُ أَنْ يَذْهَبَ مُعَلِّمًا.

بَدَأْتُ وَدَيَانَا نَتَعَلَّمُ اللُّغَةَ الْأَلْمَانِيَّةَ، كَمَا عُدْتُ إِلَى رَسْمِ لَوْحَاتِي مِنْ
جَدِيدٍ. وَكُنْتُ أَذْهَبُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ لِأُزَوِّرَ
تَلْمِيذَاتِي السَّابِقَاتِ، وَلاَحِظْتُ عَلَى سَنَجُنْ سُرُورَهُ بِهَذِهِ الزِّيَارَاتِ.
فَقَدْ كَانَ يُقْلِقُهُ أَنْ يَرَانِي - عَلَى حَدِّ تَغْيِيرِهِ - أَقْضِي أَيَّامِي دُونَ عَمَلٍ أَوْ
فَائِدَةٍ. وَذَاتَ يَوْمٍ، كُنْتُ جَالِسَةً أَدْرُسُ الْأَلْمَانِيَّةَ، وَهُوَ مُنْهَمِكٌ يَدْرُسُ
الْهِنْدُوسْتَانِيَّةَ، قَالَ:

«لِمَاذَا لَا تَدْرُسِينَ مَعِيَ الْهِنْدُوسْتَانِيَّةَ؟ إِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ وَسِيلَةٌ لِاتَّعَلَّمَهَا أَنَا.
فَهَلَا سَاعَدْتَنِي؟»

وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى رَفْضِ طَلْبِهِ. كَانَ مُعَلِّمًا مَاهِرًا، وَكُنْتُ كُلَّمَا تَقَدَّمْتُ
خُطْوَةً، طَالَبَنِي بِخُطْوَةٍ أُخْرَى.

لَمْ يَغِبْ عَن ذِهْنِي السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَر، وَكُنْتُ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى السَّيِّدِ بَرِيْجَز
أَسْأَلُهُ عَنْهُ. وَأَخِيرًا وَصَلَ مِنْهُ خِطَابٌ يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا. فَكَتَبْتُ
إِلَى السَّيِّدَةِ فِيرْفَاكْس، وَلَكِنِّي لَمْ أَتَلَقَّ مِنْهَا رَدًّا.

وَفِي صَبَاحِ يَوْمٍ فِي أَوَائِلِ الرَّبِيعِ شَعَرْتُ بِانْقِبَاضٍ، وَبَدَأْتُ أَبْكِي دُونَ
سَبَبٍ، وَكُنْتُ حِينئِذٍ مَعَ سَنَجُنْ أَدْرُسُ الْهِنْدُوسْتَانِيَّةَ؛ فَتَوَقَّفْتُ عَنِ الدَّرْسِ،
وَنَظَرْتُ إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «فَلْنَخْرُجْ لِلتَّنَزُّهِ». وَعِنْدَمَا عَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ أَسْتَدْعِيَ
مَارِي وَدَيَانَا، رَفَضَ وَقَالَ: «لَا! الْيَوْمَ سَنَذْهَبُ وَحَدْنَا.»

كَانَ الْجَوُّ صَحْوًا جَمِيلًا، وَصَعِدْنَا فَوْقَ التَّلِّ الْوَاقِعِ خَلْفَ الْمَنْزِلِ،
وَجَلَسْنَا تَحْتَ شَجَرَةٍ بِجَانِبِ النَّهْرِ لِنَسْتَرِيحَ.

قَالَ سَنَجُنْ: «جِين، لَمْ يَبْقَ غَيْرُ سِتَّةِ أَسَابِيعَ عَلَى رَحِيلِي، إِذْ تُبْجَرُ
السَّفِينَةُ يَوْمَ الْعِشْرِينَ مِنْ يُونِيَّةَ.»

قُلْتُ: «أَرْجُو لَكَ التَّوْفِيقَ.»

قَالَ: «أَنَا سَعِيدٌ بِذَلِكَ كُلِّ السَّعَادَةِ، لِمَ لَا تَأْتِينَ مَعِي؟»

قُلْتُ: «لَا أَعْلَمُ يَا سَنَجُنْ.»

قَالَ: «نَعَمْ، نَعَمْ سَتَأْتِينَ مَعِي إِلَى الْهِنْدِ يَا جِين، وَتُصْبِحِينَ زَوْجَتِي.»

قُلْتُ: «أَعْطِنِي مُهَلَّةً لِأُفَكِّرَ، وَأَرْجُوكَ أَنْ تَتْرُكَنِي الْآنَ.»
فَكَرَرْتُ طَوِيلًا، وَوَجَدْتُ أَنَّ فِي مَقْدُورِي أَنْ أُسَافِرَ مَعَهُ، وَلَكِنْ مَا هُوَ
شُعُورِي نَحْوَهُ؟ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّنِي، وَلَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ نَحْوَهُ بِالْحُبِّ الَّذِي كُنْتُ
أَرَاهُ ضَرُورِيًّا لِلسَّعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ. وَلِذَلِكَ قَبِلْتُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَهُ لِلْعَمَلِ،
وَرَفَضْتُ أَنْ أَكُونَ لَهُ زَوْجَةً.

قَالَ: «أَنْتِ لَا زِلْتِ تُفَكِّرِينَ فِي رُوثِشِسْتَر، وَلَكِنْ أَصَارِحُكَ أَنَّ رُوثِشِسْتَر
رَجُلٌ شَرِيرٌ، وَأَنْتِ أَيْضًا شَرِيرَةٌ، لِأَنَّكَ مَا زِلْتِ تُحِبِّينَهُ بَعْدَ أَنْ انْكَشَفَ لَكَ
أَمْرُهُ. لَقَدْ قُلْتُ لَكَ كُلَّ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ.»

الفصل الثلاثون

لَمْ أَتَحَدَّثْ مَعَ سَنجُنَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ لِيَوْمِ سَفَرِهِ. كَانَ سَيَنْهَضُ مُبَكِّرًا فِي الْيَوْمِ التَّالِي، فَوَدَّعْنَاهُ فِي الْمَسَاءِ وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَهْمُّ بِالْإِنْصِرَافِ وَاللَّحَاقِ بِمَارِي وَدَيَانَا اسْتَوْقَفَنِي قَائِلًا: «أَنَا آسِفٌ إِنْ كُنْتُ أَلْمُتُكَ بِحَدِيثِي يَا جِين، وَلَكِنْ بِدَاخِلِي شُعُورٌ قَوِيٌّ أَنَّنَا سَنَتَزَوَّجُ. هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِقَرَارِكَ النَّهَائِيِّ الْآنَ؟»

فَجَاءَةً شَعَرْتُ بِانْقِبَاضٍ، وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي الظَّلَامِ يُنَادِي: «جِين! جِين!» كَانَ صَوْتُ إِدْوَارِد رُوْثْشِستِر، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَبَيْكَ لَبَيْكَ، اإِنْتَظِرْنِي.» وَأَعْلَنْتُ لِسَنجُن أَنِّي لَنْ أَذْهَبَ لِلْهِنْدِ، وَلَنْ أَتَزَوَّجَهُ، وَصَمَّمْتُ عَلَى أَنْ أَبْحَثَ عَنْ رُوْثْشِستِر حَتَّى أَجِدَهُ.

الفصل الحادي والثلاثون

في اليوم التالي استيقظت قبل بزوغ الشمس، ونهضت وحزمت بعض المتاع استعدادًا للرحيل، فقد عزمت على العودة إلى ثورنفيلد. وشعرت كأنني طفلٌ مُبتَهجٌ يعودته إلى البيت في إجازته المدرسية. علمت من ماري وديانا - أثناء تناولنا طعام الإفطار - بأن سنجن قد رحل. وغادرت مورهاوس في الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء، وأخذت المركبة إلى ميلكوت ووصلتها صباح يوم الخميس التالي. ونزلت في فندق.



تَرَكْتُ أَمْتَعَتِي فِي الْفُنْدُقِ، وَسِرْتُ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى ثُورْنْفِيلِد.
وَلَا حَتَّ لِي الْأَشْجَارُ الَّتِي تُحِيطُ بِالْمَنْزِلِ عَنْ بَعْدٍ، وَلَكِنْ عِنْدَ اقْتِرَابِي
هَالَنِي مَا رَأَيْتُ. لَمْ أَرَ الْبَيْتَ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ أَطْلَالَ مُتَفَحِّمَةً تَنْبُتُ حَوْلَهَا
الْحَشَائِشُ الْبَرِّيَّةُ، وَقَدْ التَّهَمَتِ النَّيْرَانُ كُلَّ النَّوَافِدِ وَالْأَبْوَابِ وَسَطْحِ
الْبَيْتِ. مَاذَا حَدَثَ؟ وَأَيْنَ إِدْوَارْدُ وَأَدِيلُ وَالسَّيِّدَةُ فِيرْفَاكْسُ وَالْخَدَمُ؟ هَلْ
قَضَتْ عَلَيْهِمُ النَّارُ؟

عُدْتُ إِلَى الْفُنْدُقِ وَطَلَبْتُ طَعَامًا، وَعِنْدَمَا أَحْضَرَتْهُ الْخَادِمَةُ سَأَلْتُهَا:
«هَلْ تَعْرِفِينَ ثُورْنْفِيلِدَ هُولا؟»

أَجَابَتْ: «نَعَمْ، خَيْرَ الْمَعْرِفَةِ، فَقَدْ كُنْتُ خَادِمَةً هُنَاكَ قَبْلَ وَفَاةِ السَّيِّدِ
رُوثِشْتِر.»

صَرَخْتُ مُنْزِعَةً: «هَلْ مَاتَ السَّيِّدُ رُوثِشْتِرُ؟»

أَجَابَتْ: «أَنَا أَغْنِي السَّيِّدَ رُوثِشْتِرَ الْعَجُوزَ، وَالِدَ السَّيِّدِ إِدْوَارْدِ
رُوثِشْتِر.»

تَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ وَسَأَلْتُهَا: «أَيْنَ السَّيِّدُ إِدْوَارْدُ رُوثِشْتِرَ الْآنَ؟ أَهْوَ
مُقِيمٌ فِي ثُورْنْفِيلِدَ هُولا؟»

قَالَتْ: «لَا يَا سَيِّدَتِي، يَبْدُو لِي أَنَّكَ غَرِيبَةٌ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ، وَلَمْ تَسْمَعِي
عَنِ الْحَرِيقِ الْهَائِلِ الَّذِي شَبَّ فِي ثُورْنْفِيلِدَ هُولا فِي الْخَرِيفِ الْمَاضِي
وَرَأَيْتَهُ بِنَفْسِي. لَقَدْ قَضَتِ النَّيْرَانُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي الدَّارِ.»

سَأَلْتُ: «كَيْفَ بَدَأَ الْحَرِيقُ؟ هَلْ تَعْلَمِينَ؟»

أَجَابَتْ: «تَضَارَبَتِ الْأَقْوَالُ فِي ذَلِكَ. فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ فِي ثُورْنْفِيلْد سَيِّدَةٌ مَجْنُونَةٌ لَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ بُجُودَهَا حَتَّى الْعَامِ الْمَاضِي، حِينَ حَضَرَتْ لِلْمَنْزِلِ مُرَبِّيَّةٌ خَاصَّةٌ لِلْفَتَاةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُقِيمُ هُنَاكَ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَرَى تِلْكَ الْمُرَبِّيَّةَ بِهَيَّةِ الطَّلْعَةِ وَلَكِنَّ السَّيِّدَ إِدْوَارْدَ رُوْتْشِسْتِرَ وَقَعَ فِي حُبِّهَا.»

وَرَأَيْتُ تَقْصُّ عَلَيَّ تَفَاصِيلَ الْمَأْسَاةِ الَّتِي عَشْتُهَا، ثُمَّ قَالَتْ: «جَرِيسُ بُولِ امْرَأَةٌ طَيِّبَةٌ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تُهْمِلُ أحيانًا حِرَاسَةَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمَجْنُونَةِ فَتَقْلِتُ مِنْهَا وَتَقُومُ بِأَعْمَالٍ خَطِرَةٍ وَمُؤْذِيَةٍ. وَيُقَالُ إِنَّهُ بَعْدَ نَحْوِ شَهْرَيْنِ مِنْ رَحِيلِ الْمُرَبِّيَّةِ، أَفْلَتَتِ الْمَجْنُونَةُ وَأَشْعَلَتِ النَّيرانَ فِي فِرَاشِ الْمُرَبِّيَّةِ، وَسَرَّعَانَ مَا امْتَدَّتِ النَّيرانُ إِلَى بَاقِي الدَّارِ.»

سَأَلْتُ: «وَهَلْ كَانَ السَّيِّدُ رُوْتْشِسْتِرَ مَوْجُودًا أَثْنَاءَ الْحَرِيقِ؟»

أَجَابَتْ: «نَعَمْ، بَعْدَ أَنْ بَحَثَ كَثِيرًا عَنِ الْمُرَبِّيَّةِ وَلَمْ يَجِدْهَا عَادَ إِلَى ثُورْنْفِيلْد هَوْلًا. وَلَقَدْ كَانَ أَثْنَاءَ الْحَرِيقِ مِثَالًا حَيًّا لِلشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ؛ فَقَدْ كَانَ يَقْتَحِمُ النَّيرانَ لِيُخَلِّصَ مَنْ بِدَاخِلِ الدَّارِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ إِنْقَازِ الْجَمِيعِ إِلَّا الْمَرْأَةَ الْمَجْنُونَةَ. لَقَدْ وَقَفَتِ الْمَرْأَةُ الْبَائِسَةُ عَلَى السَّطْحِ تُهَلِّلُ فَرِحَةً، فَصَعِدَ إِلَيْهَا وَاتَّجَهَ نَحْوَهَا يُنَادِيهَا، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَقَفَزَتْ مِنْ فَوْقِ السَّطْحِ وَهَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ جُثَّةً هَامِدَةً. وَلَقَدْ نَجَا الْجَمِيعُ سَالِمِينَ إِلَّا السَّيِّدَ رُوْتْشِسْتِرَ الْمَسْكِينَ. فَقَدْ أَصَابَتْ النَّارُ عَيْنَيْهِ فَلَمْ يَعُدْ

يَرَى، وَيُخْشَى أَلَّا يَعُودَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ أَبَدًا. كَذَلِكَ فَقَدْ ذِرَاعَهُ الْأَيْسَرَ وَهُوَ يُقِيمُ
الآنَ فِي فِيرِنْدِين، فِي مَكَانٍ مُنْعَزِلٍ يَبْعُدُ عَنْ هُنَا نَحْوَ ثَلَاثِينَ مِيلًا. وَيَقُومُ
بِخِدْمَتِهِ زَوْجَانِ عَجُوزَانِ - مَارِي وَجُون - وَهُمَا مِنَ الْخَدَمِ السَّابِقِينَ،
وَيَرْفُضُ السَّيِّدُ رُوثِشْتِرَ أَنْ يُقَابَلَ أَحَدًا غَيْرَهُمَا. «
سَأَلْتُ: «هَلْ تُوجَدُ هُنَا مَرْكَبَةٌ؟ أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى فِيرِنْدِين الآنَ.»

الفصل الثاني والثلاثون

كَانَتْ الْغَابَةُ الَّتِي تَقَعُ فِيهَا الدَّارُ الَّتِي أَقْصَدُهَا كَثِيفَةً مُظْلِمَةً. تَرَكْتُ الْعَرَبَةَ عِنْدَ طَرَفِ الْغَابَةِ وَانْطَلَقْتُ عَلَى قَدَمَيَّ وَسَطَ أَشْجَارٍ بِاسِقَةٍ مُتَشَابِكَةٍ حَجَبَتْ عَنِّي الضُّوءَ.

أَخِيرًا وَصَلْتُ الدَّارَ، وَبَيْنَمَا أَنَا وَاقِفَةٌ مُتَرَدِّدَةٌ فُتِحَ الْبَابُ، وَخَرَجَ مِنْهُ السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَرِ يَمْشِي بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ. بَدَأَ الْمَطَرُ يَتَسَاقَطُ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ أَقْبَلَ جُونُ قَائِلًا: «خُذْ ذِرَاعِي يَا سَيِّدِي.»

فَنَهَرَهُ إِدْوَارْدُ قَائِلًا: «إِذْهَبْ عَنِّي.»

تَرَكَهُ الرَّجُلُ، وَبَدَأَ إِدْوَارْدُ يَتَجَّهُ بِبُطْءٍ نَحْوَ بَابِ الدَّارِ. أَمَّا أَنَا فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْبَابِ الْخَلْفِيِّ وَطَرَقْتُهُ. وَفَتَحَتْ لِي مَارِي وَنَظَرَتْ إِلَيَّ كَأَنِّي شَبَحٌ وَقَالَتْ: «أَهْذِهِ أَنْتِ حَقًّا يَا آنِسَةُ إِير؟ مَاذَا تَفْعَلِينَ هُنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَأَخِّرِ مِنَ الْمَسَاءِ؟»

بَعْدَ أَنْ دَخَلْتُ، أَخْبَرْتُ مَارِي وَجُونُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ، وَطَلَبْتُ أَنْ أَقْضِيَ اللَّيْلَةَ عِنْدَهُمْ. وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَحَدَّثُ سَمِعْتُ رَنِينَ جَرَسٍ، وَقَالَتْ مَارِي: «هَذَا هُوَ السَّيِّدُ رُوْتِشْسْتَرِ يُرِيدُ شَيْئًا.»

قُلْتُ: «أَرْجُو يَا مَارِي أَنْ تُعْلِنِي عَنْ وُجُودِ زَائِرٍ يَطْلُبُ مُقَابَلَتَهُ دُونَ أَنْ تُخْبِرِيهِ بِاسْمِي.»

وَبَعْدَ دَقَائِقَ عَادَتْ تَقُولُ: «إِنَّهُ يَرْفُضُ الْمُقَابَلَةَ مَا لَمْ أَخْبِرْهُ بِاسْمِكَ.» وَكَانَتْ تَمْلَأُ لَهُ كُوبَ مَاءٍ فَأَخَذْتُهُ مِنْهَا وَقُلْتُ: «إِسْمَحِي

لِي أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ هَذَا بِنَفْسِي. « وَأَرْشَدْتَنِي إِلَى بَابِ الْحُجْرَةِ فَدَخَلْتُ.
هَبَّ الْكَلْبُ بَيَّلُوتِ عِنْدَ دُخُولِي وَأَخَذَ يَنْبُحُ وَيَقْفِزُ مَرَحًا بِي، فَوَضَعْتُ
كُوبَ الْمَاءِ عَلَى الْمِنْضَدَةِ قَائِلَةً: «إِهْدَأْ يَا بَيَّلُوتِ.»
الْتَفَتَ إِلَيَّ إِذْ وَارَدَ فِي حُزْنٍ وَأَسَى بِعَيْنَيْنِ تَتَحَرَّكَانِ وَلَا تَرِيَانِ وَقَالَ:



«أَعْطِنِي الْمَاءَ يَا مَارِي، هَذَا هُوَ أَنْتِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ، إِنَّ مَارِي فِي الْمَطْبَخِ.»

مَدَّ يَدَهُ لِيَلْمَسَنِي وَقَالَ: «إِذَا مَنْ أَنْتِ؟ تَكَلَّمِي!»

قُلْتُ: «لَقَدْ عَرَفَنِي بَيْلُوت، كَذَلِكَ عَرَفَنِي جُون وَمَارِي.»

قَالَ: «مَنْ أَنْتِ؟ هَلْ أَنَا فِي حُلْمٍ؟ أَمْ هَلْ أَصَبْتُ بِالْجُنُونِ؟ اقْتَرِبِي مِنِّي

حَتَّى أَلْمَسَكَ.»

مَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي فَأَمْسَكَهَا وَرَاحَ يَتَحَسَّسُهَا وَيَتَحَسَّسُ مَلَامِحَ وَجْهِي
وَشَعْرِي، ثُمَّ قَالَ بِهِدوءٍ: «نَعَمْ هَذِهِ أَنْتِ يَا جِين؟ لَا أَصَدِّقُ أَنَّي فِي يَقْظَةٍ.

هَذِهِ أَنْتِ حَقًّا؟ أَيْنَ كُنْتَ؟ كَيْفَ حَالُكَ؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ، هَذِهِ أَنَا حَقًّا. وَأَنَا بِخَيْرٍ يَا سَيِّدِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. عِنْدِي الْآنَ

مِنَ الْمَالِ مَا يَكْفِي حَاجَتِي وَيُغْنِينِي عَنِ الْعَمَلِ. فَقَدْ مَاتَ عَمِّي فِي مَادِيرَا

وَتَرَكَ لِي كُلَّ ثَرْوَتِهِ.»

قَالَ ضَاحِكًا: «لَا بُدَّ أَنْ هَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا حُلْمٌ، فَلَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ حَلَمْتُ

بِمَالٍ أَوْ ثَرْوَةٍ. وَالْآنَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ

أَصْدِقَاءُ كَثِيرُونَ، فَمَاذَا تُرِيدِينَ مِنْ غَيْبِي ضَرِيرٍ مِثْلِي؟»

قُلْتُ: «أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ بِجَانِبِكَ، وَلَكِنْ أَتْرُكَكَ بَعْدَ الْآنِ.»

قَالَ: «جِين! جِين يَا أَحَبَّ مَخْلُوقٍ لَدَيَّ، هَلْ تَتَزَوَّجِينَ؟ وَهَلْ

تَرْضَيْنَ بِشَخْصٍ ضَعِيفٍ ضَرِيرٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ لَكَ زَوْجًا؟
قُلْتُ: «لَعَلَّكَ تَتَذَكَّرُ بَأَنِّي لَمْ أَرَكَ بَهَيَّ الطَّلَعَةِ فِي أَيِّ وَقْتٍ. وَالْآنَ لَا
أَرَى فِيكَ عَيْبًا سِوَى شَعْرِكَ الطَّوِيلِ الَّذِي يَجْعَلُكَ كَالْأَسَدِ، وَهَذَا عَيْبٌ
يَسْهُلُ إِصْلَاحُهُ. وَالْآنَ فَلْنَجْلِسْ وَنَتَنَاوَلْ بَعْضَ الطَّعَامِ.»
تَنَاوَلْنَا الْعِشَاءَ مَعًا، وَكُلُّنَا سَعِيدٌ بِلِقَاءِ الْآخَرِ، وَأَرْجَأْتُ الْكَلَامَ عَنِ
الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ لِي حَتَّى الْيَوْمِ التَّالِي.
فِي الْيَوْمِ التَّالِي نَهَضَ إِدْوَارْدُ مُبَكَّرًا وَبَدَأَ يَسْأَلُ مَارِي عَنِّي؛ وَارْتَدَيْتُ
مَلَابِسِي وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَبَعْدَ تَنَاوُلِ طَعَامِ الْإِفْطَارِ خَرَجْنَا نَتَنَزَّهُ مَعًا.
قَالَ: «مِنَ الْيَوْمِ سَتَكُونِينَ أَنْتِ عَيْنِي اللَّتَيْنِ أَبْصِرُ بِهِمَا.»
أَمْضَيْنَا الْيَوْمَ فِي الْخَلَاءِ وَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِي أَثْنَاءَ غِيَابِي عَنْهُ،
وَاتَّفَقْنَا عَلَى الزَّوْاجِ.

الفصل الثالث والثلاثون

تَزَوَّجْنَا، وَلَمْ يَحْضُرْ حَفْلَ زَوَاجِنَا سِوَى رَجُلٍ الدِّينِ وَزَوْجَتِهِ. وَعِنْدَمَا
عُدْنَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَخْبَرْنَا جُون وَمَارِي بِالْخَبَرِ، أَبَدِيَا سُرُورَهُمَا وَقَالَا إِنَّهُمَا
كَانَا يَتَوَقَّعَانِ ذَلِكَ، وَتَمَنِّيَا لَنَا التَّوْفِيقَ وَالْهَنَاءَ.

كَتَبْتُ خِطَابًا إِلَى مُورْ هَاوس وَشَرَحْتُ مَا حَدَثَ بِالتَّفْصِيلِ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ
حَضَرْتُ دِيَانَا لِمُزَارَاتِنَا، أَمَّا سَنُجُنْ فَكَتَبَ رِسَالَةً بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ لَمْ يَذْكُرْ
فِيهَا شَيْئًا عَنْ زَوَاجِنَا، بَلْ كُلُّ مَا كَتَبَهُ كَانَ بِخُصُوصٍ عَمَلِهِ فِي الْهِنْدِ.
وَاسْتَمَرَّ تَبَادُلُ الرِّسَائِلِ بَيْنَنَا فِيمَا بَعْدَ مَرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلِّ عَامٍ.

كَانَتْ أَدِيلُ فِي الْمَدْرَسَةِ وَذَهَبْتُ لِأُزَوِّرَهَا، وَسَعِدَ كِلَانَا بِهَذَا اللَّقَاءِ، إِلَّا
أَنَّ الْمَدْرَسَةَ الَّتِي كَانَتْ بِهَا ذَكَرْتُنِي بِمَدْرَسَةِ لُودُونِ مِنْ حَيْثُ سُوءُ الْمَعِيشَةِ
وَالنِّظَامِ. وَعِنْدَمَا عَلِمَ إِدْوَارْدُ بِذَلِكَ نَقَلْنَاهَا إِلَى مَدْرَسَةٍ أَفْضَلَ وَأَقْرَبَ،
حَيْثُ كُنْتُ أَذْهَبُ لِمُزَارَاتِهَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ خِلَالِ السَّنَةِ، وَتَحْضُرُ هِيَ فِي
الْإِجَازَاتِ لِتَقْضِيهَا مَعَنَا. وَلَمَّا أَتَمَّتْ دِرَاسَتَهَا بِنَجَاحٍ عَمِلَتْ مُدْرِّسَةً.

لَقَدْ مَضَى الْآنَ عَشْرُ سَنَوَاتٍ عَلَى زَوَاجِنَا، وَنَحْنُ نَعِيشُ هَانِئِينَ
مُتَحَابِّينَ. وَقَدْ بَدَأَ نَظَرُ إِدْوَارْدِ يَتَحَسَّنُ تَدْرِيجِيًّا، وَذَهَبْنَا إِلَى أَحَدِ أَطِبَّاءِ
الْعُيُونِ الْمَشْهُورِينَ فِي لَنْدُنَ لِلِاسْتِشَارَةِ وَالْعِلَاجِ. وَاسْتَرَدَّ إِدْوَارْدُ بَصَرَهُ
كَامِلًا فِي إِحْدَى عَيْنَيْهِ، وَعِنْدَمَا رُزِقْنَا بِطِفْلِنَا الْأَوَّلِ ضَمَّمَهُ إِلَى صَدْرِهِ أَمَامَ
نُورِ عَيْنِهِ، وَرَأَى بِنَفْسِهِ الشَّبَهَ الْقَوِيَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طِفْلِهِ.

الروايات المشهورة

- | | |
|-----------------|---------------------------|
| ١ - جين إير | ٤ - دراكولا |
| ٢ - فرانكنشتاين | ٥ - لورنا دون |
| ٣ - مونفليت | ٦ - دكتور جيكل ومستر هايد |



مَكْتَبَةُ لُبْنَان
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَیروت

رقم مرجع کمیونتر 01 C 198 101